اقرأ

سامي الكيالي



من أضواء الماضي

دار المعارف بمصر

مِن أضواء الماضي

سامي الكيالي

من أضواء الماضي

٩٥
اقرأ
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٩٥ — أكتوبر سنة ١٩٥٠



الحكيم شهاب الدين السهروردى

إلى الذين لا يتورعون أن يحكموا
على كل مؤمن بالكفر ، وعلى كل
مفكر بالإلحاد أهدى هذه الصفحات ...

بلصق دار البريد بحلب حجرة تضم رفات مفكر إسلامى حر ، اشتغل بالفقه ، وراض نفسه على التصوف ، ونظم الشعر ، وحاول السحر ، وأملى فى الفلسفة ودوّن فى العلم ، وطوف فى البلدان وهو شاب فى ريعان العمر ، وما زال حتى قذفت به الأقدار إلى حلب فاندمج بالبيئات العلمية ، يناظر فقهاءها ويجادل علماءها فيبزهم ويتفوق عليهم تفوقاً أثار حفيظتهم ، فكادوا له ودسوا ، وما زالوا يكيدون ويدسون حتى أمر السلطان بهدر دمه ، فذهب ضحية الوشاية والحسد وسوء الخلق — هذا المفكر الإسلامى الحر الذى يثوى فى غرفة باردة لا ترى النور ، هو يحيى بن حبش السهروردى صاحب القصيدة المتداولة فى أروقة الصوفيين والتى مطلعها :

أبداً تحنّ إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقائكم ترتاح

فما قصة هذا العالم الشهيد ؟ وفى عهد مَن من الملوك عاش ؟ وما هى الحياة السياسية فى عهـــده ؟ وما لون الآراء والعقائد فى زمنه ؟ . . . هـــذا ما نريد أن نتناوله بالبحث .

* * *

الذين عرفوا ، فى تاريخ العقلية الإسلامية ، بالسهروردى أكثر من مفكر واحد ، وجميعهم اشتهر بالفضل والعلم والأدب . ولكن الذى يعنينا من هذا البحث ، هو السهروردى الذى قتل فى حلب لاتهامه بالتعطيل والزندقة بعد أن سجل الفقهاء وثيقة كفره .

ولا شك أن حياته تتميز بما تتميز به قصص شهداء الفكر ، فهو ذكى حاد الذكاء ، وهو عالم مفكر حر النزعة كفيلسوف متصوف ، وهو شاعر دقيق الشاعرية ازدرى العامة والعلماء والأمراء والملوك ، وقنع بكفاف العيش ، بل ازدرى نفسه كإنسان فلم يهتم لما يهتم له الناس من المظاهر ، فكان زرى الثياب زرى الهيئة على قول من أرخوا له . نعم ، لم يكن يهتم إلا بشؤون الفكر وقضايا النفس ، وهذه سمة ظاهرة للمفكرين العلماء ، بله المتصوفين الذى يعروهم الذهول

فى كثير من الحالات فينسون أنفسهم ولا يهتمون للمظاهر العرضية بقدر اهتمامهم بما هم مشغولون به من جواهر الأمور وحقائقها العليا . وهكذا كان السهروردى ، فقد اتفق جميع من أرخ له على وصفه بهذه الصفات البارزة : كابن خلكان وابن شداد والذهبى والآمدى والحنبلى وغيرهم ممن كتبوا عنه ، كياقوت الرومى الذى يترجمه بالفقرات الآتية :

« شهاب الدين أبو الفتوح السهروردى ، كان فقيهاً شافعى المذهب أصوليًّا أديباً شاعراً حكيما متفنناً نظاراً ، لم يناظره مناظر إلا خصمه وأفحمه . قرأ بالمراغة على الشيخ الإمام مجد الدين الجيلى الفقيه الأصولى المتكلم ، ولازمه مدة ، ثم تنقل فى البــلاد على قدم التجرد ، ولقى بماردين الشيخ فخرالدين المارديني وصحبه ، وكان يثنى عليه كثيراً ، ويقول لم أر فى زمانى أحداً مثله ، ولكنى أخشى عليه من شدة حدته وقلة تحفظه . ثم رحل أبو الفتوح إلى حلب فدخلها فى زمن الظاهر غازى بن أيوب سنة ٥٧٩ هجرية ، ونزل فى المدرسة الحلاوية وحضر درس شيخها الشريف افتخار الدين ، وبحث مع الفقهاء من تلاميذه وغيرهم ، وناظرهم فى عدة مسائل فلم يجاره أحد منهم وظهر عليهم ، وظهر فضله للشيخ افتخار الدين ، فقرب مجلسه وأدناه ، وعرف مكانه فى

الناس . ومن ذلك الحين تألب عليه الفقهاء وكثر تشنيعهم عليه[١] . »

وفى النجوم الزاهرة[٢] : « أن السهروردى كان يعانى علوم الأوائل والمنطق والسيمياء وأبواب النيرنجيات[٣] ، فاستمال بذلك خلقاً كثيراً ، وتبعوه ، وله تصانيف فى هذه العلوم » .

وقال أبو العباس أحمد بن أبى أصيبعة فى كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » : «كان السهروردى أوحد أهل زمانه فى العلوم الحكمية ، جامعاً للعلوم الفلسفية ، بارعاً فى الأصول الفقهية ، مفرط الذكاء ، فصيح العبارة ، وكان علمه أكثر من عقله . »

وقال ابن خلكان : «كان السهروردى من علماء عصره ، قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلى بمدينة المراغة من أعمال أذربيجان إلى أن برع فيهما . وهذا مجد الدين الجيلى هو شيخ فخر الدين الرازى وعليه تخرج وبصحبته انتفع ، وكان إماماً فى فنونه . »

وفى العبر : «السهروردى أحد أذكياء بنى آدم ، كان

---

(١) «معجم الأدباء» لياقوت ج ٧ ص ٢٦٩ طبعة مرغليوث .
(٢) «النجوم الزاهرة» ج ٦ ص ١١٤ طبعة دار الكتب المصرية .
(٣) جمع نيرنج ، وهو أخذ تشبه السحر وليس بحقيقته .

رأساً فى معرفة علوم الأوائل بارعاً فى علوم الكلام ، مناظراً محجاجاً متزهداً مزدرياً للعلماء مستهزئاً رقيق الدين . »

هذه هى آراء معاصريه ومن إليهم من المؤرخين . وقد اتفقوا كلهم على الإلماع إلى فرط ذكائه وقوة علمه ، وعلى أنه قوى الحجة ، ذرب اللسان فى مناظرته ، وأنه من أفذاذ عصره الموهوبين فى العلم والفقه والحكمة والفلسفة .

قدم حلب ، فى عهد الملك الظاهر أبى منصور غازى ابن السلطان صلاح الدين الأيوبى . وحلب إذ ذاك تغص بالعلماء والفقهاء ، وبأفاضل الرجال من مختلف الطبقات . وكانت إلى هذا فى مصطرع من المذاهب والتيارات الدينية والسياسية ، تعيش فى حياة قلقة مضطربة ، فقد اشتبك الغرب فى حروب دينية دامية فى هذه الأصقاع التى تمتد من مصر إلى بيت المقدس ، إلى أقصى سوريا الشمالية . . . وأية حروب ؟ حروب كر وإفناء . فحروب العقائد لا تقل فى عنفها ، برغم اختلاف وسائل القتال ، عن بقية الحروب . إنها تستهدف الدفاع عن الدين والدفاع عن أرض الوطن معاً ، وكلاهما حافزان قويان لأن يثيرا نيران القتال بشدة ، وأن يدفعا المحاربين للقتال بعنف وجنون .

ولست هنا فى معرض وصف الحروب الصليبية ، وقد

كتب حولها عشرات المجلدات فى مختلف اللغات ، ولكنى أردت ، وأنا أتكلم عن السهروردى الفيلسوف الحكيم الذى ذهب ضحية معتقده وتفكيره الحر ، أن ألم إلى طابع العصر ، لأثره القوى فى توجيه النفوس نحو الفكرة التى يعيش فى صميمها الكاتب الأديب أو العالم الفيلسوف ، فأنت لا تستطيع أن تتكلم عن الحرية فى عصور الاستبداد ، ولا عن الديمقراطية فى عهود الدكتاتوريات ، فهذا الذى يعرّض الفكر والحرية ويعرض المفكرين الأحرار إلى العنت والظلم والأذى والاضطهاد . وهذا الذى حفز الفقهاء — وطابع العصر على ما هو عليه من التعصب الدينى — أن يستغلوا هذا الشعور الهائج فيصوروا السهروردى المفكر بأنه من المجدفين على الله ، المنكرين لنبوة رسوله انتقاماً لشهوات أنفسهم ، بعد أن أفحمهم بردوده وجعلهم أنصاف علماء أو فى حكم الجهلاء .

كانت حلب كأكثر المدن الإسلامية ، تجتاز هذه الفترة من الحياة العقلية والسياسية فى عهد الأيوبيين ، وكان صلاح الدين هو سيد هذه المناطق التى تمتد من أقصى مصر إلى أقصى حلب ، وكان لا بد له ، وقد انتهى من حروبه أو كاد ، من أن يوطد ملكه فى الأطراف ، فما دخلت

سنة ٥٨٢ هـ حتى كانت فكرة تقسيم البلاد بين آله وأبنائه(١) قد اختمرت فى ذهنه ، فأعطى ولده العزيز عثمان مصر ، وولده الأفضل الشام ، وولده الظاهر حلب ، وأعطى أخاه العادل أبا بكر إقطاعات كثيرة بمصر . فلماذا خص ولده الظاهر بحلب ؟

يذكر المؤرخون أن صلاح الدين كان يحب ابنه الظاهر حباً جماً ، ومع أن عدد أبنائه سبعة عشر ، بينهم ابنة واحدة ، فقد كان الظاهر أحبهم إليه ، لما فيه من الخلال الحسنة ؛ فهل كانت حلب أثمن مدينة فى الرقعة الإسلامية حتى أهداها إلى أحب أولاده إليه ؟

لذلك قصة طويلة لا بأس من الإلماع إليها طالما انتقلنا من الحديث عن السهروردى إلى الملك الظاهر :

فى النجوم الزاهرة : أن علم الدين سليمان بن جندر أحد أمراء حلب قال لصلاح الدين — وكان بينهما مؤانسة — : بأى رأى كنت تظن أن وصيتك تنفذ ؟ — يشير بهذا إلى وصيته بتقسيم البلاد بين آله وأبنائه — كأنك كنت خارجاً إلى الصيد ثم تعود فلا يخالفونك ؟ أما تستحى أن يكون

(١) الذى رسم هذه الخطة هو القاضى الفاضل عبد الرحمن بن على البيسانى الذى كان وزيراً لصلاح الدين، كما استوزر لابنه العزيز، وتوفى سنة ٥٩٦ هـ.

الطائر أهدى منك إلى المصلحة ؟ !

قال صلاح الدين — وهو يضحك — وكيف ذلك ؟

قال : إذا أراد الطائر أن يعمل عشًّا لفراخه قصد إلى أعالى الشجر ليحمى فراخه ، وأنت سلمت الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض . هذه حلب ، وهى أم البلاد ، بيد أخيك — وكانت بيد الملك العادل — وحماة بيد ابن أخيك ، وحمص بيد ابن عمك أسد الدين ، وابنك الأفضل مع تقى الدين يخرجه متى شاء ، وابنك الآخر مع أخيك فى خيمة يفعل به ما أراد . فقال له صلاح الدين : صدقت ، فاكتم هذا الأمر . ثم أخذ حلب من أخيه العادل وأعادها إلى الملك الظاهر ، وأعطى العادل بعد ذلك حران والرها وميافارقين ليخرجه من الشام ، وفرق الشام على أولاده ، فكان ما كان ، وزوج صلاح الدين ولده الملك بغازية خاتون ابنة أخيه الملك العادل المذكور(١) .

وكان صلاح الدين — كما يقول القاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد — يرى أن حلب هى أصل الملك وجرثومته وقاعدته(٢) . وهذا الذى جعله يختار لها أحب أولاده إليه .

(١) «النجوم الزاهرة» ج ٦ ص ٣١ و ٣٢ طبعة دار الكتب المصرية.
(٢) سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٥٨ طبعة مصر .

وقد ولد الملك الظاهر بالقاهرة سنة ثمان وستين وخمسمائة ونشأ نشأة أبيه ، فكان ملكاً مهيباً وله سياسة وفطنة ودولة معمورة بالعلماء والأمراء والفضلاء ، وكان محبباً للرعية والوافدين عليه ؛ حضر معظم غزوات والده ، وكان فى دولته من الأمراء : ميمون القصرى ، والبارز بن يوسف ، وسنقر الحلبى ، وغيرهم من الصلاحية ؛ ومن أرباب العمائم : القاضى بهاء الدين بن شداد ، والشريف الافتخارى الهاشمى ، والشريف النسابة ، والقيسرانى وبنو الخشاب وغيرهم ؛ وكان ملجأ للغرباء وكهفاً للفقراء ، يزور الصالحين ويتفقدهم وبقى على ذلك إلى أن توفى فى ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة بعلة الذرب ، ودفن بقلعة حلب ، ثم نقل بعد ذلك إلى مدرسته التى أنشأها أمام القلعة .

* * *

تميزت حياة السلطان الظاهر بهذه الخصائص وبغيرها من الميزات ، وكثيراً ما أنجد صاحب حمص حين هاجمه الإفرنج فأنقذه ، وطرد أعداءه حتى طرابلس ، كما قضى على أعمال النهب التى كان يقوم بها فى أطراف حلب ابن لاون — أو ليون الأرمنى — على رواية بعض المؤرخين . وبينما كان أخوه الأفضل صاحب دمشق منغمساً فى اللعب

واللهو كان الظاهر مثال الرصانة والسداد والحزم ، مقتفياً أثر والده فى الحدب على الرعية وصون مملكته لا سيما أنه كان يعلم أن أقل نكسة تكفى لانهيار الملك وضياع التراث الضخم الذى أعاد بناءه صلاح الدين . فقد كان الأعداء على الأبواب ، يتحفزون ويتربصون لأقل بادرة ، بل كانوا يرتقبون أقل فرصة للانقضاض واسترجاع هذه البلاد التى صبغت جوانبها بالنجيع الأحمر وذهبت فى سبيلها مهج النفوس .

* * *

حياة الظاهر هذه التى تميزت بأنبل الخصائص ، ودولته التى كانت معمورة بالعلماء وأولى الفضل ، قد تلطخت بتلك الوصمة التى قضت بهدر دم نفس بريئة ، نفس عالم شاب من أزكى العلماء وأرفعهم قدراً . ولا نسترسل فى تاريخ حياة الظاهر أكثر من هذا ، فحسبنا منها هذه اللمحة السريعة لنضىء جانباً من حياة السهروردى ، وكيف ثار ضده فقهاء حلب ، وكيف شكوا أمره إلى السلطان وأردفوا الشكوى بوثيقة كفره ، وكيف أمر السلطان صلاح الدين بهدر دمه ، ثم كيف نفذ الظاهر الحكم ؟ وكيف ندم بعد قتله على فعلته وبطش بالمحرضين وانتقم منهم أبشع انتقام ؟

* * *

كان الإمام شهاب الدين يعيش فى بلدة « سهرورد » لا يُعنى إلا بما يشغل المفكرين عادة من الغوص على المذاهب يناقشها مناقشة الباحث المفكر ، والعالم المجتهد . وكأنى به قد ضاق ببلده فنزح إلى أقرب المدن الإسلامية التى تخفق عليها رايات صلاح الدين . فجاء إلى حلب بعد أن استفاضت أنباء ملكها الظاهر وطرقت انتصارات أبيه مسمعه وهو فى بلدة « سهرورد » . وسهرورد بلدة فى العراق العجمى ، قريبة من زنجان من أعمال أذربيجان . وإذا علمنا أن منبت السلطان صلاح الدين من « دوين » ، وهى بلدة من أعمال أذربيجان أدركنا الصلة التى تربطه بهذه الأسرة التى لعبت أكبر دور فى تاريخ الإسلام السياسى فى القرن السادس الهجرى فهما من منطقة واحدة ، وهو كعالم مفكر يفيض قلبه بالحكمة والإيمان كان أكثر زهواً وأشد سروراً من غيره لهذه الأنباء . وقد اجتذبته هذه البقاع العربية التى كانت أوسع مسرح للحروب العنيفة التى أثارها الإفرنج على صلاح الدين . نعم ، اجتذبته هذه البقاع بعد أن ضاقت به بيئته أو ضاق هو بموطنه فشد الرحال إلى سورية بعد أن أخذ بقسط وافر

من العلوم الإسلامية والعلوم الفلسفية . انتقل من بلد إلى بلد ومن منطقة إلى أخرى يجتمع بعلمائها ويأخذ عن حكمائها ، وما زال حتى وصل إلى حلب ، يحمل فى وفاضه الحكمة والعلم والمعرفة . وما ذاع نبأ وصوله حتى التف حوله العلماء يناقشونه فى فروع العلم المختلفة ، وكأنما شهرته سبقته قبل أن تطأ قدماه أرض الشهباء . وخيل إليه أنه رحل إلى بيئة تنعم بالحرية أكثر مما تنعم به بيئته ، إلى موطن الفكر ليبدع فى التفكير الإسلامى آراء ومذاهب جديدة ، وليكتب ويؤلف أكثر مما كتبه وألفه ، فقد بلغت مؤلفاته وهو شاب ، أكثر من ثمانية كتب . وكأنه كان يشعر أنه لم يكتب شيئاً ، وأن حياته العقلية ستبدأ بعد هذه الفترة من سنى الشباب ، ولكن أمانيه — ويا للأسف — طارت هباء .

لقد دخل حلب فى عام ٥٧٩ هـ . وإذا علمنا أن ولادته كانت سنة ٥٤٩ هـ أدركنا أى فذ هذا الشاب الذى بز العلماء وفاقهم وهو فى الثلاثين من عمره . لقد كان فقيهاً وكان فيلسوفاً وكان شاعراً وكان زاهداً وكان أكثر من هذا كله . فمن هذا العبقرى الموهوب الذى هابته أئمة العلماء حتى خافت على عقيدة الملك وعقائد الناس ، فطلبت الحكم عليه بالقتل ؟ لا شك أنه ذو مواهب فذة ، وأنه لم يكن

معطلا ولا ملحداً ولا زنديقاً إلى الحد الذى صوروه به ، بل كان متصوفاً قد ازدرى البشر وجاهر بالحقائق العليا التى يدين بها كفيلسوف وكمفكر وكمتصوف معاً . وهذا هو الذى جعل أنصاف العلماء ينسبون إليه الزندقة والتعطيل .

* * *

لقد ذكرنا فيما تقدم أن السهروردى نزل المدرسة الحلاوية ، وحضر دروس شيخها الشريف افتخار الدين ، وتباحث معه الفقهاء من تلاميذ الشيخ وغيرهم ، وناظرهم جميعاً فى عدة مسائل ، فلم يجاره أحد منهم ، بل ظهر عليهم ، وظهر فضله للشيخ افتخار الدين فقرب مجلسه وأدناه ، وعرفت مكانته فى الناس ، ومن ذلك الحين تألب عليه الفقهاء وكثر تشنيعهم عليه . فماذا نفهم من هذا ؟ نفهم أن شيخ المدرسة الحلاوية كان على جانب كبير من الدراية والعلم ، فقد عرف فضل هذا الشاب الغريب وما ينطوى عليه صدره من علم ، وما يتميز به من أدب وحكمة وفلسفة ، فأدناه من مجلسه ، وسرعان ما نقل أمره إلى السلطان ، فأحب أن يعرفه . ولكن السهروردى لم يكن فى هذا المظهر الذى يليق به أن يقابل الملوك والوزراء ، فقد وصفه المؤرخون وصفا

زرياً منكراً ، فقد كان — على حد قولهم — زرى الخلقة ، دنس الثياب ، وسخ البدن ، لا يغسل له ثوباً ولا جسما ولا يداً ، ولا يقص ظفراً ولا شعراً . ولم يكتفوا بأن حملوه كل هذه الأقذار الدنيوية بل زادوا عليها قولهم : وكان القمل يتناثر على وجهه ، ويسعى على ثيابه ، وكل من يراه يهرب منه . وما أظن أنه كان فى هذه الحالة الزرية ، وهو على ما هو عليه من سمو الحكمة وفرط الذكاء . . . ربما تغلبت صوفيته على مظهره وهندامه ، ولكن يبدو لى أن خصومه قد صوروه بهذه الصورة الكريهة البشعة ليحولوا بينه وبين السلطان . ولكننا وقد عرفنا بعض خصائص الملك الظاهر وميله إلى العلماء والحكماء — مهما كان مظهرهم — نستطيع أن نجزم بأنه لم يلتفت إلى أقوال البطانة والحساد ، بل أخذ برأى الشيخ افتخار الدين ، فاستقبل السهروردى فى قصره ورحب به أجمل ترحيب ، وما كاد السهروردى يفيض فى الحديث حتى لمح فيه سمو الحكمة وإشراق الذهن ، فقربه وأقبل عليه وتخصص به كما يقول المؤرخون ، مما أدى إلى ازدياد غيظ حساده ورميهم إياه بالإلحاد والزندقة . ولكن الملك الظاهر لم يلتفت إلى دسائسهم وأكاذيبهم ، ولا إلى دنىء حيلهم وخسيس مؤامرتهم ، لأنه تحدث إليه

فى أدق الشؤون العقلية والدينية فعرف صفاء عقيدته ونقاء طويته فازداد عطفه عليه وإحسانه إليه ، مما جعل حاسديه يزدادون غيظاً وتثور ثائرتهم عليه وعلى الملك أيضاً .

كيف العمل وقد أصبح هذا الزنديق الدخيل صفى السلطان ؟

تساءل الفقهاء هذا السؤال فيما بينهم ، ثم قر رأيهم أن لا بد من مكيدة تؤدى بحياته .

ويا ويل العلم إذا تألبت عليه جموع الجهل !

ويا لمصيبة الفكر إذا تآمر عليه الجامدون !

ويا لمصرع الحرية إذا حوربت بجبروت الطغاة المستبدين ! ...

وقد تنادى فقهاء حلب للقضاء على السهروردى العالم المفكر الحر . ولا شك أنهم خطبوا على المنابر ، وأثاروا ثائرة الجمهور ، واستفزوا شعوره الدينى ، أى أنهم استفزوا أدق ناحية حساسة عنده . نعم ، تنادى فقهاء حلب لإنقاذ الدين من زنديق متمرد على الدين — كما صوروه للناس ، وبهذا الشعور العارم راجعوا السلطان فى أمره . ولكن الملك الظاهر بعد أن عرفه وعرف رأيه فى الدين وفى الخالق لم يلتفت إلى خزعبلاتهم ولا إلى دسائسهم . وكأنى به قد اعتز أن يكون بين علماء مملكته أمثال هذا الحكيم الفيلسوف

الشاب ، فازداد عطفاً عليه وحباً له وإيثاراً على الكثيرين من المقربين إليه . ولما أعيت الفقهاء الحيلة ، وأيقنوا أن صاحب حلب لم يصغ إليهم ، لجأوا إلى أبيه يستفزون عاطفته الدينية . وسيرة صلاح الدين مشهورة بالورع والتقى ، وببغضه كتب الفلاسفة وأرباب المنطق وكل من يعاند الشريعة . والسهروردى فيلسوف وحكيم ومن رجالات المنطق ، وقد صوروه فى صورة معاند الشريعة . ويا ويل من يجسر على أن يعاند الشريعة أو يثير نزعات إلحادية فى ذلك العصر الذى يتميز بالطابع الدينى ! إن أقل جزاء له هو القتل . ولما خابت جهود الفقهاء عند صاحب حلب كتبوا إلى أبيه يخبرونه بفساد عقيدة ابنه ؛ وقالوا : إن صحبته — أى صحبة الملك الظاهر — للسهروردى لم تقتصر على فساد عقيدته بل ستفسد عقائد الناس .

فما هذا البلاء الذى صبه الله على حلب بنزول هذا الزنديق المعطل أرضها ؟

بذلك صرح الفقهاء . ومما جاء فى رسالتهم إلى صلاح الدين هذه الجملة المثيرة : « أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته » . فما كان من صلاح الدين إلا أن كتب إلى ابنه بإبعاده ونفيه . ولكن الملك الظاهر ، وهو عليم بأسرار هذه المأساة ...

التى أجادوا تمثيلها ، لم ينفذ أمر أبيه ، فلم يبعد السهروردى ، وبقى فى حلب ، يحيط به الشباب ويحنو عليه الملك ، وكأنه قد خلق فى حلب حزبين : حزباً يؤيده وحزباً يناوئه .

كان الشباب وعلى رأسهم الملك الظاهر من أنصاره ، وكان الشيوخ وعلى رأسهم السلطان صلاح الدين من خصومه ؛ فلمن كانت الغلبة ؟

انقسم الناس قسمين حول هذا الرجل : قسم معه وقسم عليه ، وهذا ما رواه القاضى ابن شداد ، وهو ثقة فى هذا الموضوع ، لأنه عاصر الرجل وشهد مأساة هذا الصراع الفكرى العنيف ، قال : أقمت بحلب فرأيت أهلها مختلفين فيه ، منهم من يصدقه ، ومنهم من يزندقه ، والله أعلم .

ومن المؤسف أن يمر القاضى ابن شداد بهذا الصراع ويدوّن مثل هذه الحقيقة التاريخية التى تنير لنا الكثير من غوامض هذا الصراع دون أن يقول لنا رأيه فى الرجل ، وإلى أى جانب كان يميل . وعلى كل فإن اختلاف الناس فى أمره وانقسامهم فريقين ، ثم حماية صاحب حلب له ، كل هذا يدلنا دلالة ساطعة على أن السهروردى كالكثيرين من العباقرة الموهوبين الذين يختلف الناس فى أمرهم ، ويعتبر هذا الخلاف دليل عظمتهم ونبوغهم .

* * *

ضج العلماء من سلوك الملك الظاهر وتحيزه للرجل الذى كشف جهلهم ، وكان أكثرهم غيظاً وضجيجاً ، وأشدهم نقمة الشيخان زين الدين ومجد الدين ابنا حميد . فما كان منهما إلا أن أثارا ثائرة العلماء فجمعوا جموعهم وتقدموا إلى الظاهر يطلبون بإلحاح إنفاذ أمر أبيه . ويظهر أنهم أحرجوه عند أبيه وعند العامة معاً . ورأى أن خير طريقة للخروج من هذا الإحراج أن يعقد مجلساً للمناظرة فيما هم فيه مختلفون ، واستمهلهم أن يكتب إلى أبيه بذلك . فرضوا بهذا الحل ، وكتب إلى أبيه . ولا شك أنهم كتبوا إلى صلاح الدين أيضاً . ومن المؤسف أن كتب التاريخ لا تحفظ لنا نص هذه الرسائل وهى وثائق ثمينة فى حرية الفكر .

* * *

كتب الظاهر إلى أبيه يقول إنه لا بد من مجلس يعقد للمناظرة قبل أن ينفيه ، فوافق صلاح الدين وعقد المجلس واحتشد العلماء ، وكان السهروردى أشبه بمتهم ، وأية تهمة ؟ تهمة معاندة الشريعة وإفساد العقائد . ولا شك أن جموعاً

كثيرة كانت ترقب الحكم عليه لينقذ الدين من نزعات هذا الملحد بعد أن صانه صلاح الدين من هجمات الكفار .

* * *

وناظره العلماء فظهر عليهم .

« قالوا : إنك قلت فى بعض تصانيفك : إن الله قادر على أن يخلق نبيًّا . . . وهذا مستحيل .

قال : وما وجه استحالته ؟ فإن الله القادر لا يمتنع عليه شيء » .

وتقف كتب التاريخ عند هذا النص ، وما نظن أن المناظرة دارت حول هذه الفقرة فقط ، ولكن من أرخوا له اكتفوا بهذا ، وهى كافية لأن يدينوه ؛ وهكذا تداولوا فيما بينهم ، وبعد جدال غير طويل حكموا عليه بالكفر وجردوه من الإيمان .

ثم كتبوا وثيقة كفره ، وما هى إلا لحظات حتى أذيعت على الناس وهى تفتى بقتله .

أين هذه الوثيقة ؟ إن جميع من أرخ للملك الظاهر أو للسهروردى لم يورد نصها . واكتفوا جميعهم بالإلماع إليها ، وكنا نود أن نقف على تلك الاتهامات التى صاغها

الفقهاء إشباعاً لشهوات حسدهم وتغطية لخذلانهم ، ولكن ما لنا وتلك الحيثيات ، فقد نجحت المؤامرة ورمى السهروردى بالكفر والتعطيل ، وحكم عليه بالموت ، وبلغه ذلك ، كما بلغ الظاهر ما انتهى إليه العلماء ، ولا شك أن الظاهر قد تأثر وجالت الدموع فى عينيه ، وأن الفيلسوف الشاب قد أيقن أن منيته قد دنت ، وأن خصومه قد انتصروا عليه بدسائسهم لا بحججهم وبراهينهم . وشاءت إرادة الله الذى لا يمتنع عليه شىء حتى خلق النبوات أن يكون مصرع هذا الحكيم على يد من اصطفاه وفضله على الكثيرين ، فقد انصاع الملك الظاهر إلى فتوى العلماء وصدرت إرادته بتنفيذ الحكم .

ولكن كيف ينفذ الحكم ؟ أيقتل أم يصلب أم يسلّم إلى عباد الله المؤمنين يقطعون جسم هذا الكافر الزنديق إرباً إرباً ؟ ! يخيل إلينا أن الملك الظاهر طلب من صديقه الفيلسوف أن يختار ميتة ، فطلب أن يحبس فى مكان ما ، ويُمنع الأكل والشرب إلى أن يموت .

وكأنما أراد السهروردى أن يمتحن نفسه ، وأن يحقق نزعاته الصوفية بهذه الميتة التى أرادها له المتنطعون . فحياة الصوفيين لون من العذاب أو هى الفناء فى سبيل الحقائق

العليا . وليس أحب إلى نفسه من أن يمتنع عن الأكل وعن الشرب أياماً ، وأن يعيش زاهداً متقشفاً إلى أن يلقى ربه . وهكذا كان إلى أن فاضت روحه نقية طاهرة .

* * *

لا شك أن صاحب حلب قد حزن حزناً عميقاً لهذه النهاية المؤلمة التي انتهت بها حياة السهروردى .

وأية ميتة ماتها ؟ !

فى رواية أن الملك الظاهر سجنه ثم خنقه فى سجنه بقلعة حلب .

وفى رواية أخرى أن السلطان أمر بقتله وصلبه أياماً !

وعن سبط ابن الجوزى فى تاريخه عن ابن شداد أنه قال : لما كان يوم الجمعة بعد الصلاة فى العاشر من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة أخرج الشهاب السهروردى ميتاً من الحبس بحلب فتفرق عنه أصحابه . نعم ، تفرقوا عنه وقبعوا فى دورهم ينكرون هذا الطغيان الذى مس حرية الفكر ، وانتصر القدماء على المحدثين ، أو قل انتصر الشيوخ على الشباب . ولا شك أن كثيراً من أشياع السهروردى قد بكوه بدموع غزار ورثوه بقصائد تفيض بالحرقة والأنين .

ولكن أين تلك القصائد الصادقة ؟

لقد ذهبت كما ذهب السهروردى ولم يجسر أحد أن يدونها أو يحتفظ بها .

وكان الملك الظاهر فى طليعة من بكاه . فقد ندم على فعلته وحقد كثيراً على من جروه إلى هذا المأزق الحرج الذى أودى بحياة شاب من أنبه الشباب وأذكاهم فكراً ودراية وعلماً وتجرداً عن الدنيويات . وشعر بالفراغ الكبير الذى تركه مصرع هذا الفيلسوف الحكيم . نعم ، ندم الملك ولكن ما عساه يفعل انتقاماً لذكراه ؟ يقول المؤرخون : « إنه نقم على جميع من أفتوا بقتله ، فقبض عليهم ونكبهم وصادر جماعة منهم بأموال عظيمة » ؛ فهل أرضى بفعلته هذه أنصار السهروردى ومريديه ؟ ربما ، ولكن هيهات أن يكون قد انتقم للفكر بعمله هذا ، وستظل ميتة السهروردى لطخة سوداء فى تاريخ الظاهر الأيوبى على ما امتاز به حكمه من حسنات .

* * *

قبل أن ننهى كلامنا عن عالمنا الفيلسوف نريد أن نتساءل : هل الدسائس التى تأخذ صبغة الدفاع عن قداسة الدين قادرة على إطفاء شعلة الفكر ؟ لقد مر ثمانمائة سنة على

مصرع السهروردى ولكن ذكره فى عالم الفكر لا يزال حياً . . . إن غير واحد من المفكرين المسلمين قد واجهوا فى عصور التاريخ مثل هذه الدسائس والمؤامرات التى اصطبغت بصبغة الدفاع عن قدسية الدين ، فإذا ذكرنا السهروردى فيجب أن لا ننسى النسيمى الذى يضم رفاته ترابُ حلب أيضاً ، فإن قصة مصرعه لا تقل فى بشاعتها عن مصرع السهرودى ، فهذا العالم المتصوف الذى يرقد فى الزاوية النسيمية بالقرب من دار بلدية حلب كان كثير الجدل مع فقهاء زمنه ، وكثيراً ما تغلب عليهم بحججه الساطعة وبراهينه القوية ، فلما أفحمهم احتالوا عليه بالدسائس ، وكانت الحيلة : أن كتبوا سورة من سور القرآن فى ورقة ورشوْا من يخيط النعال أن يدسها فى طيات النعل ، وقد أوهموه أنها « حجاب » محبة وقبول ، فأطاع الرجل ، ووضع الورقة وفق طلبهم ؛ وما إن سلمها لهم حتى أخذوا تلك النعل وأهدوها إلى الشيخ من طريق بعيدة ، فلبسها ، وهو لا يشعر بالكيد الذى دبر له لأنه مشغول عن ذلك بما هو أسمى ، ثم طلعوا لنائب حلب وقالوا له : قد بلغنا من طريق صحيحة أن النسيمى كتب « قل هو الله أحد » وجعلها فى أطباق نعله ، وإن لم تصدقنا فأرسل وراءه وانظر ذلك ، ففعل ، واستخرجوا

الورقة ، وأدرك الشيخ الحيلة التي لجأ إليها خصومه . عندئذ سلم أمره إلى الله تعالى ولم يجب عن نفسه ، وعلم أنه لا بد أن يقتل ، وكان الأمر كما يتصور . قال الشعرانى : وأخبرنى بعض تلامذة تلامذته أنه صار ينشيء موشحات فى التوحيد وهم يسلخونه حتى نظم خمسمائة بيت ، وكان ينظر إلى الذين يسلخونه وهو يبتسم !

وما لاقاه السهروردى والنسيمي قد لاقاه كثير من المفكرين بوشايات زملائهم من العلماء .

فقد نفى أبو زيد البسطامى سبع مرات من بسطام بوساطة جماعة من علمائها .

وأخرجوا سهل بن عبد الله التُستَرى من بلده إلى البصرة ونسبوه إلى قبائح ، وكفروه مع إمامته وجلاله .

وشهدوا على الجُنَيد بالكفر مراراً حين كان يتكلم فى علم التوحيد على رؤوس الأشهاد ، فلزم عقر بيته إلى أن مات .

وشهدوا على الشبلى بالكفر مراراً مع تمام عقله وكثرة مجاهداته ، وأدخلوه البيمارستان مدة طويلة لينفض الناس من حوله .

وأخرجوا أبا بكر النابلسي مع فضله واستقامته فى طريقته من المغرب إلى مصر ، وشهدوا عليه بالزندقة عند السلطان ،

فأمر بسلخه منكوساً ، فصار يقرأ القرآن بتدبر وخشوع وهم يسلخونه حتى قطع قلوب الناس وكادوا يفتنون به .

ورموْا أبا مدين بالزندقة وأخرجوه من بجاية إلى تلمسان.

وأخرجوا أبا الحسن الشاذلى من مصر وشهدوا عليه بالزندقة .

ورموا تاج الدين السبكى بالكفر وشهدوا عليه أنه يقول بإباحة الخمر والفاحشة ، وأنه يلبس فى الليل الغيار والزنار . وأتوا به مغلولا مقيداً من الشام إلى مصر . وخرج جمال الدين الأسيونى فتلقاه من الطريق وحكم بحقن دمه[1] .

وهناك كثيرون أغفلنا الإلماع إلى ذكرهم لأن هذا لايدخل فى حديثنا الذى نريد أن نختمه بالإلماع إلى تراث السهروردى الفكرى وما تركه من رسائل وكتب ، بل مررنا بذكر أولئك الشهداء مروراً سريعاً لعلاقة ذلك بقصة من ذهب ضحية الدسائس والمؤامرات فى سبيل الحقائق العليا وقداسة التفكير الحر .

* * *

ترك السهروردى مؤلفات ورسائل كثيرة، ومع أنه لم يصل إلى السن التى تمكنه من التأليف وكتابة آرائه الحكمية وميوله الفلسفية كما كتبها غيره من الحكماء والفلاسفة ، ذكر له

---

(١) «اليواقيت» للشعرانى ص ١٤ و ١٥ .

المؤرخون عدة رسائل وكتب فى أغراض شتى . ولولا مصرعه وهو شاب لكان قد ترك للأجيال تراثاً فكرياً ضخماً . ومع ذلك فإن وفرة كتبه الكثيرة المنازع تدل على مواهبه الفذة . فمن مؤلفاته : التلويحات فى الحكمة ، والتنقيحات فى أصول الفقه ، وحكمة الإشراق ، والغربة الغريبة ، وهياكل النور ، والألواح العمادية ، والمعارج ، واللمحة والمطارحات ، والمقامات ، وغيرها وغيرها ، فأين تلك الكتب ؟ لم يطبع منها غير « هياكل النور » ، وهو كتاب يضم مباحث قصيرة فى تعريف الجسم والصورة ، وفى جوهر النفس وتجردها وقواها ، وفيه إشارة إلى ضلال الماديين والرد عليهم وما هناك من فروق بين الروح الحيوانى والروح الإنسانى ، ثم ردود صريحة على من يتوهم أن النفس هى البارى أو جزء منه ، وغير ذلك من الآراء التى ختمها بفصل عن النبوءات . والآراء بمجموعها صدى للفكرات التى عالجها غير واحد من مفكرى العرب وفلاسفة المسلمين . وليس موضوعنا مناقشة ما جاء فى هذه الرسالة بل ألمعنا إليها لأنها الأثر الوحيد الذى وصل إلينا من مؤلفاته ، إذ من الصعب جداً أن نتخذ رسالة صغيرة من مؤلفاته أساساً للبحث دون أن نقف على أكثر كتبه . فأين هى ؟ أهى فى الخزانات الخاصة أم فى المكاتب العامة ؟

وإذا أراد مستشرق أو باحث أن ينشر كتاباً من كتبه أفيستطيع أن يعثر لها على أثر [١] أم أن خصومه وقد ظفروا بهدر دمه قد أحرقوا كتبه ورسائله ؟

لا ندرى ، على أن ما رشح إلينا من كلماته يدل على أنه عانى الفلسفة وكتب فيها المطولات ، فرسالة « الغربة الغريبة » مثلا ، كتبها على نسق رسالة الطير لأبى على بن سينا ، ورسالة « حى بن يقظان » وفيها — على ما يذكر المؤرخون — بلاغة تامة أشار فيها إلى حديث النفس وما يتعلق بها على اصطلاح الحكماء ، فمن كلماته مثلا :

« نواحى القدس ، دار لا يطؤها القوم الجاهلون .

« وحد الله وأنت بتعظيمه ملآن ، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عريان ، ولو كان فى الوجود شمسان ، لانطمست الأركان ، وأبى النظام أن يكون غير ما كان . »

---

(١) فى سنة ١٩٤٥ صدر فى إستامبول عن مطبعة وزارة المعارف مجموعة ضخمة فى الحكمة الإلهية للسهروردى ، وتعد هذه المجموعة التى قامت « هيئة النشريات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية » بنشرها من أوثق النصوص التى تشرح آراء السهروردى فى الحكمة الإشراقية . وقد تولى تصحيحها المستشرق هـ. كوربين Henry Corbien ولم يصدر له غير هذا الكتاب الثمين ... فأين هى بقية كتبه ورسائله وقد قاربت الخمسين ... هل أحرقها خصومه ؟ لا ندرى ...

وهو فى هذا الاتجاه يذهب مذهب الإشراقيين من حكماء الإسلام ومتصوفيهم – وهو منهم فى الطليعة – ومن الصعب أن نأخذ كلمة من كلماته أساساً لبحث آرائه فى الفلسفة والإشراق والتصوف وله فيها المصنفات(١) . ولم نقصد من بحثنا هذا أن نكتب دراسة واسعة عن السهروردى وبيان روح فلسفة الإشراق بقدر رغبتنا فى تدوين هذه الخطوط السريعة من حياته المليئة بالأحداث .

وإذا وقفنا عند هذا الحد من الإشارة إلى مؤلفاته ، ما بقى منها وما اندثر ، فحسبنا أن نختم كلامنا بالإلماع إلى قصيدته « الحائية » التى بقيت كوثيقة توضح لنا نفسية هذا الصوفى العاشق الذى تدل كل كلمة من كلماتها على معنى

---

(١) وقد أوضح حاجى خليفة فى كتابه «كشف الظنون» مقصد السهروردى من حكمة الإشراق بقوله : « إن للدين والفلسفة موضوعاً واحداً ، وهو الخير الأسمى الذى هوفضيلة وسعادة معاً ، ومعرفة هذا الخير الأسمى تتضمن معرفة الله وصفاته وتنزيهه ، وإن هذه المعرفة يمكن أن تحصل من طريقتين : أحدهما طريق النظر ، وثانيهما طريق الزهد والتصوف والذوق الصوفى ، والذين يسلكون الطريق الثانى ، إذا كانوا يعتنقون الإسلام ، ويستغلون تعاليمه على وجه من أوجه الاستغلال فهم الصوفية ، أما إذا لم يكونوا كذلك ، وكانوا يصطنعون الذوق ويأتون فى مذاهبهم بما يتنافى وأحكام الشرع فهم الإشراقيون » .

من تصوفه وروحانيته :

أبداً تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانُها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقائكم ترتاح
وارحمتا للعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح
بالسر إن باحوا تُباح دماهم وكذا دماء العاشقين تباح
وإذا هم كتموا تحدث عنهم عند الوشاة المدمعُ السفاح
وبدت شواهد للسقام عليهم فيها لمشكل أمرهم إيضاح
خفض الجناح لكم وليس عليكم للصب فى خفض الجناح جناح
فإلى لقاكم نفسه مشتاقة وإلى رضاكم طرفه طماح
عودوا بنور الوصل فى غسق الجفا فالهجر ليل والوصال صباح
صافاهم فصفوا له، فقلوبهم فى نورها المشكاة والمصباح
فتمتعوا والوقت طاب بقربهم راق الشراب ورقت الأقداح
يا صاح ليس على المحب ملامة إن لاح فى أُفق الوصال صباح
لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى كتمانهم، فنمى الغرامُ فباحوا
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها لما دروا أن السماح رباح
ودعاهم داعى الحقائق دعوة فغدوا بها مستأنسين وراحوا
ركبوا على سَنن الوفاء ودمعهم بحر، وحادى شوقهم ملاح
والله ما طلبوا الوقوف ببابه حتى دُعوا وأتاهم المفتاح
لا يطربون لغير ذكر حبيبهم أبداً فكل زمانهم أفراح

حضروا فغابوا عن شهود ذواتهم ... وتهتكوا لما رأوه وصاحوا
أفناهم عنهم وقد كشفت لهم ... حجب البقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح
قم يا نديم إلى المدام وهاتها ... فبحانها قد دارت الأقداح
من كرم إكرام بدنِّ ديانة ... لا خمرة قد داسها الفلاح

ونجزم أن للسهروردى ديواناً فُقد كما فُقدت مؤلفاته ، لأن من يكون له هذا النفس العالى فى الشعر لا بد أن يكون له أكثر من قصيدة . وكتب الأدب لا تحفظ لنا غيرَ هذه القصيدة وبعض مقطوعات تفيض بالرقة واللوعة والحنين ، ففى قصيدة النفس التى جارى فيها (عينية) ابن سينا ألوان زاخرة من الحرمان والشوق :

خلعت هيا كلـَها بجرعاء الحِمى ... وصبت لمغناها القديم تشوقا
وتلفتت نحو الديار فشاقها ... ربعٌ عفت أطلاله فتمزقا
وقفت تسائله فرد جوابها ... رجع الصدى أن لا سبيل إلى اللقا
فكأنما برق تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه ما أبرقا

وفى قصيدته الرائية حيث يبعد عن البشر ويأنس بوحدته ألوان زاخرة بالتشاؤم والسأم :

أقول لجارتى والدمع جارى ... ولى عزم الرحيل عن الديار
ذرينى أن أسير ولا تنوحى ... فإن الشهب أشرفُها السوارى

وإنى فى الظلام رأيت ضوءاً   كأن الليل بدل بالنهار
إلى كم أجعل الحيات صحبى   إلى كم أجعل التنين جارى
وأرضى بالإقامة فى فلاة   وفى ظُلم العناصر أين دارى
ويبدو لى من الزوراء برق   يذكرنى بها قرب المزار
إذا أبصرت ذاك النور أفنى   فما أدرى يمينى من يسارى

نعم إن من يقول هذا الشعر لا بد أن يكون له أكثر من قصيدة تفسر نزعاته كصوفى متجرد ينشد الحقائق العليا. — هذه الحقائق التى قادته إلى الهلاك على يد فئة رأوا فى هدر دمه إرواء لشهوات دسائسهم . وكم من مفكر ذهب ضحية الدس والجهل والتآمر — جهل الدساسين وتآمر المتنطعين . وفى قصة مصرعه عبرة وأى عبرة وصورة واضحة مما لاقته حرية الفكر فى القرن السادس الهجرى من عنت وضغط وإرهاق نتيجة هذا الصراع الذى قام بين الفقهاء والمتصوفة ، وهو صراع يرجع إلى فجر القرن الرابع حين مر علم الكلام الإسلامى أو علم العقائد بأهم أدوار حياته — وهو دور تحرره من الفقه . ونحن نعلم أن التشاد كان قوياً فى ذلك العصر بين الصوفيين والفقهاء ، وكثيراً ما عبر الصوفيون عن احتقارهم لعلم الفقه الذى يسمونه علم الدنيا ، ورأينا الإمام الغزالى فى القرن الخامس يجاهر أمام جمهور

المسلمين بأن علم الفقه علم دنيوى لا دينى . وما زالت هذه الآراء فى جذب ودفع بين الفقهاء والصوفيين إلى أن كانت الغلبة للفقهاء فى القرن السادس – وطابع العصر طابع دينى كما أسلفنا – فكان ضحية هذا التنطع الحكيم شهاب الدين السهروردى الذى قضى شهيد الفكر وهو فى ريعان العمر فخسرت الفلسفة الإسلامية مفكراً فذّاً من مفكريها الشباب .

نهاية وزير فى العصر الأيوبى

الحقد السياسى لون من الضغائن الرعناء تتميز به بعض النفوس الضعيفة فلا تكاد تحكم وتسيطر حتى تهيج أهواؤها ، وتنشب أظفارها ، وتتحرك غرائزها ، فتفتك بخصومها وتنتقم منهم دون أن تتقيد بقانون أو يردعها ضمير أو يقف تيارها العاصف وجدان .

وهو — إلى هذا — عامل نفسانى يفصح عن أهواء البشر وضلالاتهم المزمنة . وفى تاريخ الثورات والانقلابات مئات الأمثلة على ما تقترفه بعض النفوس من آثام الانتقام التى كثيراً ما تهدر على مذابحها الدماء أنهاراً . . .

ولو رجعنا إلى الحوافز الأساسية لمبدأ الحروب لرأينا شرارتها الأولى قد انبثقت من هذا الداء الدفين الذى يسمونه الحقد ، فينتقل من الأفراد إلى الجماعات إلى الأمم ، فلا يكاد يثور حممه كالبركان حتى تتبناه الدول فتنقلب الدنيا الوادعة إلى جحيم محترق .

ولن أسوق فى بحثى هذا الأمثال على أدوار الحقد السياسى

فى التاريخ ، فهذا موضوع يطول ، والمصادر عنه أكثر من أن تحد . ولكن أردت من هذا الإلماع أن أرسم سطوراً واضحة من سيرة رجل لم تعن به الدراسات الحديثة — رجل مر بهذا اللون من الحقد السياسى ، فلم يكد يصل إلى القمة حتى عصفت به المقادير فانحدر إلى الهوات السحيقة .

وما أكثر المحن السياسية التى يعج بها تاريخنا — تلك المحن التى لعب فيها الحقد الفردى أكبر دور ، منها ما أبرزته الدراسات ، ومنها ما ظل مطوياً فى بطون الكتب .

وأظن أن لا حرج علينا أن ننبش أحياناً دفائن الماضى نستجلى سطوره وننفذ إلى خفاياه ، ولا حرج أن نسرد تاريخ ما أهمله التاريخ ، وأن نرجع القهقرى لنقف وقفات طويلة مع من حفل بهم تاريخنا السياسى والأدبى والفكرى . والواقع أنه بالرغم من عناية الباحثين بدراسة تاريخنا الضخم ، لا يزال الكثيرون ممن ظهروا على مسرح هذا التاريخ مهملين . ومع وفرة الدراسات الأدبية والتاريخية عن العصرين الجاهلى والإسلامى مثلا ، وقفت هذه البحوث عند القرن الرابع الهجرى إلا قليلا ، وظل القرنان الخامس والسادس وما يليهما محدودى الدراسة . وإن ما كتب عنهما بالعربية بالنسبة إلى ما كتب عنهما فى اللغات الأجنبية المختلفة يبدو ضئيلا جداً ،

مع أن علاقة الغرب بالشرق قد بدأت منذ هذه العصور — تلك العلاقات أو الحروب التى جعلت تاريخ بلادنا يفيض بأعنف الأحداث وأخطر الحوادث التى تحتاج إلى تنقيب طويل ودراسات شاملة منظمة لا تزال العربية تفتقدها .

قدمت هذه التوطئة لأجلو حياة رجل من رجالات ذلك العصر — حياة وزير من أبرز وزراء الدولة الأيوبية ، ارتفع شأنه فى مصر حتى أصبحت أمور الدولة بين يديه ، ولكن ما كاد يحدث الانقلاب السياسى وتنتقل السلطة من الفاطميين إلى الأيوبيين حتى أخذ خصمه السياسى يحيك له المؤامرات ويدس الدسائس . وما زال حتى نزل به من سماوات المجد والسيطرة إلى دركات البؤس والشقاء ... وإذ انتهى إلى هذا المصير المحزن ورأى أن حياته أثمن من بريق الوزارة ، هجر مصر — وطنه الغالى — إلى حلب ، فاحتضنته وكرمته وأغدقت عليه المال والعطايا ، فاتخذها مقرًّا ، وما زال حتى طوته أرضها غريباً عن أهله ووطنه .

فمن هو هذا السياسى المضطهد الذى جعلناه موضع بحثنا هذا ؟

هو أسعد بن المهذب المماتى من أهالى أسيوط ، من صعيد مصر ، نشأ فى بيت من بيوت المجد والوزارة . كان أبوه

المهذب . المعروف بالخطير . مرتباً على ديوان الإقطاعات . وهو على دين النصرانية . واتصل جده المليح بأمير الجيوش بدر الجمالى . وزير مصر فى أيام الخليفة المستنصر بالله . أى أن الطفل أسعد . قد نشأ فى بيت ارتبط مصير آله بخدمة الدولة . ولم تمنعهم نصرانيتهم أن يسهموا فى خدمة الدولة التى كانت تنظر إلى مواطنيها المختلفى الملل والنحل نظر الأب إلى أولاده المختلفى المنازع والأهواء .

واشتراك النصارى فى خدمة الدولة وتصريف أمورها من المبادئ السامية التى أقرتها سياسة الخلفاء فى صدر الإسلام .

وقد عنى المهذب بتثقيف ابنه أسعد العناية اللازمة ، فنشأ وقد ألم بثقافة ذلك العصر إلماماً واسعاً ، فكان أديباً وشاعراً وذا مواهب سامية فى علم المال ، وهذه هى الصفات التى يجب أن يتسلح بها الفرد آنذاك ليكون مرموق النظر ويحظى بمنصب خطير فى سياسة الدولة . وما هى إلا سنوات حتى شب ولمع اسمه ، وأصبح ممن يشار إليهم بالبنان . . .

كان القرن السابع الهجرى يتسم بالطابع الدينى ، وكانت مصر تشهد ميلاد دولة جديدة ، وانتقال الحكم من الفاطميين إلى الأيوبيين . وقد أدرك أبوه المهذب عهد الدولتين ؛ ولأنه بدأ حياته السياسية بخدمة الفاطميين تخوف من الأيوبيين ،

فلم يكد يدخل أسد الدين شيركوه — عم صلاح الدين — أرض مصر حتى أدركه الفزع . كان شيركوه من المتشددين فى العصبية ، فخشى المهذب على ماله وعلى روحه من دعاة السوء — وما أكثرهم فى كل عصر ! — الذين لا يتورعون أن يلصقوا به التهم جزافاً ، وأن يتخذوا نصرانيته وسيلة للإيقاع به . وقد يكون هذا وهماً من الأوهام . ولكن ما أكثر ما يسيطر الوهم على المنطق فى الساعات الحرجة من فترات الثورات والانقلابات . وعلى كل فقد أحب أن يضحى بعقيدته على مذبح السياسة لكيلا يفسح المجال لخصومه أن يلعبوا لعبتهم المخطرة . . . يقول ياقوت — وهو يشير إلى هذه القصة — إن المهذب جمع أولاده ودخل على السلطان ، وأسلموا على يده ، فقبلهم وأحسن إليهم ، وزاد فى ولايتهم ، وجبَّ الإسلام ما قبله .

إذن فقد آثر المهذب أن يسلم هو وأولاده خوفاً من أن تؤثر وشايات المفسدين فيذهب دمه هدراً ، والعصر آنئذ يتسم بالطابع الدينى ، فنشأ الوزير القبطى نشأة إسلامية واندمج فى خدمة الأيوبيين كما اندمج أبوه وجده فى خدمة الفاطميين ، وأتيح له أن يسيطر على مرافق الدولة سيطرة جعلته مرموق النظر ، عالى المكانة ، لا يضيق به غير

صدر حاسديه ومبغضيه ، وهذا سلاح الضعفاء الذين يعثر بهم الحظ وتكبو بخطواتهم الأيام .

* * *

كان ابن المهذب واسع التفكير ، يفيض قلبه بالمحبة والخير ، وكانت الإنسانية هى التى توجهه فى أعماله دون تفريق بين دين ودين أو بين مذهب ومذهب . نعم ، كانت أعمال الخير والإحسان والبر بالفقراء بعض سجاياه ، فقد ورث هذه الخلال عن أبيه وجده . والقصتان اللتان سأرويهما عن جده أبى المليح تعطينا صورة صادقة عما كانت تتمتع به هذه الأسرة النصرانية من جاه عريض وذكاء نادر وثروة واسعة ومركز اجتماعى خطير .

أما الأولى فقد ذكر المؤرخون أن مصر دهمها غلاء شديد فى عهد المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٠ هـ ٤٨٧) ودام الجوع سبع سنوات ، وقل القوت ، وفتكت المجاعة فتكاً ذريعاً بطبقات الشعب حتى بيع الرغيف الواحد بخمسين ديناراً ، وكان أبو المليح جد الوزير أسعد واسع الثروة ، وكانت خزائنه تفيض بالقمح ، فلم يقس قلبه كما تقسو قلوب الأغنياء فى عصرنا هذا ، بل كان يوزع القمح على الفقراء ، وكان يتصدق على صغار المسلمين ، فإذا رأوه هتفوا له من

الأعماق وقالوا : مماتى ، مماتى ، فغلب عليه هذا اللقب وعرف به .

أما القصة الثانية التى تدل على ذكائه فقد رواها القفطى قال :

« بلغنى أن بعض تجار الهند قدم إلى مصر ومعه سمكة مصنوعة من عنبر ، قد تنوق[١] فيها وأجيدت ، وطيبت ورصعت بالجواهر ، فعرضها على بدر الجمالى ليبيعها منه ، فسامها من صاحبها ، فقال : لا أنقصها عن ألف دينار شيئاً[٢] . فأعيدت إليه فخرج بها من دار بدر . فقال له أبو المليح : أرنى هذه السمكة . فأراه إياها . فقال له : كم رسمت فيها ؟

فقال : لا أنقصها عن ألف دينار درهماً واحداً . فأخذ بيده وقبض ألف دينار من ماله وتركها عنده مدة .

فاتفق أن شرب أبو المليح يوماً وسكر وقال لندمائه : قد اشتهيت سمكاً ، هاتوا المقلى والنار حتى نقليه بحضرتنا . فجاءوه بمقلى حديد وفحم ، وتركوه فى النار ، وجاء بسمكة

---

(١) أى صنعت صنعة محكمة .

(٢) هذا المبلغ يوازى ما قيمته الآن ٦٠٠ جنيه مصرى بواقع الدينار ٦٠ قرشاً صاغاً حسب تقدير المرحوم الأمير عمر طوسون باشا .

العنبر فتركها فى المقلى . فجعلت تتقلى وتفوح روائحها حتى لم يبق بمصر دار دون أن تدخلها تلك الرائحة . وكان بدر الجمالى جالساً فشم تلك الرائحة وتزايدت . فاستدعى الخزان . وأمرهم أن يفتحوا خزائنه يفتشوها خوفاً من حريق يكون قد وقع فيها . فوجدوا خزائنه سالمة .

فقال : ويحكم ! انظروا ما هذا ؟

ففتشوا حتى وقعوا على حقيقة الخبر . فاستعظم الأمر وقال : هذا النصرانى الفاعل الصانع ، قد أكل أموالى واستبد بالدنيا دونى ، حتى أمكنه أن يفعل مثل هذا ؟ ! وتركه إلى الغداة . فلما دخل عليه وهو مغضب قال له : ويحك ؛ أستعظم أنا ، وأنا ملك مصر ، شراء سمكة من العنبر فأتركها استكثاراً لثمنها ، فتشتريها أنت ثم لا يقنعك حتى تقليها ، وتذهب فى ساعة ألف دينار مصرية ! ما فعلت هذا إلا وقد نقلت بيت أموالى إليك ، وفعلت . . .

فقال : والله ما فعلت هذا إلا غيرة عليك ومحبة لك ، فإنك اليوم سلطان نصف الدنيا ، وهذه السمكة لا يشتريها إلا ملك ، فخفت أن يذهب بها إلى بعض الملوك ويخبره بأنك استعظمتها ولم تشترها ، فأردت أن أعكس الأمر ، وأعلمه أنك ما تركتها إلا احتقاراً ، وأنها لم يكن لها عندك

مقدار ، وأن كاتباً نصرانياً من كتابك اشتراها وأحرقها ، فيشيع بذلك ذكرك ويعظم عند الملوك قدرك ، فاستحسن ذلك منه وأمر له بضعفى ثمنها ، وزاد فى رزقه[1].

هاتان القصتان — قصة إحسانه إلى فقراء المسلمين فى تلك الأيام التى وصل فيها سعر رغيف الخبز إلى خمسين ديناراً ، وقصة بذخه وترفه وحسن تخلصه ونفاذه إلى قلب الأمير ، تدلان على ما كان لهذه الأسرة من المجد الرفيع والسؤدد العريض وما يتمتع به أفرادها من الكياسة والذوق والأدب ، وقد نشأ الوزير أسعد فى ظلال هذه المكرمات .

إذن كان لمركزه الاجتماعى وثقافته الواسعة ، وثروته الضخمة ، وما عرفت به أسرته من إحسان إلى الفقراء ، وبعد عن العصبية المذهبية والنعرات الطائفية — كل هذه الخصائص هى التى رفعته إلى مقام الوزراء فوثق به صلاح الدين وأحسن إليه ، وزاد فى ولاياته ورفعه إلى أسمى مناصب الدولة .

وقد يتساءل بعضهم ماذا كان موقف هذا النصرانى الذى أسلم من الحروب الصليبية ؟ أتراه أخلص للدولة التى قلدته أرفع مناصبها كما قلدت أباه وجده أرفع المناصب ، وهما على دين النصرانية أم كان إسلامه تقية كما كان إسلام أبيه ؟

(١) معجم الأدباء ج ٦ ص ١٠٤ — ١٠٧

أتراه اعتبر نفسه مواطناً يشارك الدولة فى سياستها الإسلامية ، أم كان يطمع فى حكم المغيرين الذين كانوا يغزون البلاد بروح صليبية ؟ وأخيراً أكان يؤثر الغرب المسيحى على الشرق الإسلامى أم أن هذه الاعتبارات لم تكن لتمر بخاطره ، وأنه كان يرجع فى ذلك إلى هواجسه القومية .

الواقع أنه ليس بين أيدينا من النصوص ما يضىء هذه الناحية الدقيقة من دخائل الرجل وطواياه ؛ ولكن اندماجه فى كيان الدولة ، وتسنمه أرفع مراتبها ، واعتماد السلطان عليه — كل ذلك يدل على أنه كان يؤثر الناحية القومية على كل اعتبار دينى ، وهذا الذى جعله يمضى فى سياسة قومية . وجعل مصر تركن إليه فى شؤونها الخطيرة دون أن تنظر إليه نظرها إلى دخيل على دينها الرسمى .

ويظهر أن هذه الاعتبارات التى تشغل هواجس بعض الذين ضاق تفكيرهم فى عصرنا هذا ، فخلطوا بين الدين والوطن ، لم تكن بالشكل الذى يفهمه بعض المتزمتين فى تلك العصور التى ثارت فيها الحروب بعصبية دينية ، بدليل أن الفاطميين قد استخدموا جده فى مركز رفيع ، وهو نصرانى ، واستخدم الأيوبيون أباه لا لأنه ترك نصرانيته وأسلم بل للكفايات التى تميز بها هذا البيت . وهذه الكفايات هى

نفسها التى رفعت ابن المهذب إلى أرفع المراتب .

* * *

وكتب الأدب لا تكتفى حين تؤرخ حياته أن تلمع إليه كوزير فقط ، بل تلمع إليه كقاض من قضاة مصر الأجلاء ، وتلقبه بالقاضى ابن المكارم . وكانت بينه وبين القاضى الفاضل صلات ود وثيقة ، وصداقة جد متينة . يقول ياقوت حين يلمع إلى هذه الصلات :

« وقد اختص بصحبة القاضى الفاضل ، ونفق عليه[1] وحظى عنده ، وكرم لديه ، فقام بأمره وأشاع من ذكره ، ونبه على فضله ، وصنف له عدة تصانيف باسمه ، وكان يسميه بلبل المجلس لما يرى من حسن خطابه » .

واهتمام القاضى الفاضل[2] هذا الاهتمام الكبير بابن مماتى ، على ما للقاضى الفاضل من مركز رفيع عند صلاح الدين الذى كان يعتبره الوزير الأول فى الدولة ويخاطب رجاله بقوله : « إنى ما ملكت البلاد بسيوفكم ولا برماحكم ولكن بقلم القاضى الفاضل » — إن اهتمام القاضى الفاضل بالوزير

---

(١) أى راج عنده أو تفقه عليه .

(٢) عبد الرحيم بن على بن السعيد اللخمي المعروف بالقاضى الفاضل : من ... الـكتاب ، ولد بعسقلان بفلسطين .

ابن المماتى يدلنا على ما كان يتمتع به من مركز رفيع ومقام سام ، لا فى سياسة الدولة ولا فى المركز الاجتماعى فقط ، بل فى عالم التأليف أيضاً . فقد ضرب فى هذه الناحية بسهم وافر . فألف فى الدين والفقه . كما ألف فى التاريخ والأدب . وكان فى جميع هذه الميادين — بالنسبة للمقياس الذى تقاس به ثقافة عصره — الفارس المجلى .

يصف جمال الدين القفطى مؤلفاته بقوله :

وله تصانيف كثيرة يقصد بها قصد التأدب ، وفى معرض وقائع تجرى . ويعرضها على الأكابر ، لم تكن مفيدة إفادة علمية . إنما كانت شبيهة بتصانيف الثعالبى وأضرابه ؛ فمن ذلك كتاب « تلقين التفنن فى الفقه » و « سر الشعر » و « علم النثر » و « الشىء بالشىء يذكر » ؛ وقد عرض هذا الكتاب على القاضى الفاضل ، فسماه سلاسل الذهب : لأخذ بعضه برقاب بعض . وكتاب « تهذيب الأفعال لابن ظريف » و « قرقرة الدجاج فى ألفاظ ابن الحجاج » ، وكتاب « الفاشوش فى أحكام قره قوش » و « لطائف الذخيرة لابن بسام » و « ملاذ الأفكار » و «ملاذ الاعتبار» و « سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب » و« أخاير الذخائر» و« كرم النجار فى حفظ الجار» و«ترجمان الجمان » و «مذاهب المواهب»

و « باعث الجلد عند حادث الولد » و « الحض على الرضا بالحظ » و «زواهر الصدف وجواهر الصدف» و «قرص العتاب ودرة التاج » و « ميسور النقد» و «المنتخل» و « أعلام النصر» و « خصائص المعرفة فى المعميات » .

نعم ، فقد ضرب ابن المماتى بسهم وافر فى التأليف فى ميادين المعرفة المتنوعة : فكتب فى الفقه واللغة والتاريخ والأدب . . . ولا نعلم ما حفظته لنا الأيام من هذه الكتب . ومن حقنا أن نتساءل أين هذه الكتب ؟ ومن المؤسف أن نقول : إن أكثرها مفقود . وقد طبع له أخيراً كتاب « قوانين الدواوين » طبعته الجمعية الزراعية الملكية بإشارة من صاحب السمو المغفور له عمر طوسون باشا الذى اعتبره وثيقة من أهم الوثائق عن حالة الزراعة ونظم الدواوين المصرية فى عصر الدولة الأيوبية التى لم يصلنا عنها إلا النزر اليسير(١) ، بل اعتبره من وثائق الطراز الأول ، وهو على اختصاره وعدم إمعانه فى استعراض المسائل مفصلة كل التفصيل ، يحمل كثيراً من الصفات التى امتاز بها ذلك النوع المعروف من الموسوعات العظيمة التى ظهرت فى العصور الوسطى الإسلامية(٢) .

---

(١) مقدمة كتاب قوانين الدواوين ص ٧

(٢) مقدمة كتاب قوانين الدواوين ص ٧

وحين يلمع القاضى الفاضل إلى تصانيفه يمتدحها ويخص منها بعض الكتب ذات الأثر فى نفس صلاح الدين وسياسته فى الدولة فيقول :

وصنف عدة مصنفات منها : تلقين اليقين فى الكلام عن حديث « بنى الإسلام على خمس » ، وكتاب حجة الحق على الخلق فى التحذير من سوء عاقبة الظلم وهو كبير ، وكان صلاح الدين يكثر النظر فيه ، وعقب القاضى الفاضل على هذا الكلام بقوله :

« وقفت من الكتب على ما لا تحصى عدته فما رأيت والله كتاباً يكون قبالة باب منه ، وإنه والله من أهم ما طالعه الملوك . » ثم يشير إلى كتاب « قوانين الدواوين » ، الذى صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجرى فيها وهو أربعة أجزاء ضخمة . والذى يقع فى أيدى الناس جزء واحد اختصره منه ، غير المصنف ، فإن ابن مماتى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحة كل ضيعة ، وقانون ريها ، ومتحصلها من عين وغلة ، كما نظم سيرة صلاح الدين يوسف ، ونظم كليلة ودمنة ، وله ديوان شعر لم تحفظ منه كتب الأدب غير مقطوعات وقصائد كقوله :

قد نهانا عن الغرام نُهانا إذ هوانا أن لا نذوق هوانا
وهجرنا الحبيب خيفة أن يه جر بدءاً فيستمر عنانا
وأنسنا من وحشة بفراق فافترقنا كما ترى برضانا
وسمعنا من العذول كلاماً فأنفنا من ضحكه لبكانا
أى خير يكون فى حب من فوْ وق سهماً من لحظه ورمانا
نحن لولم نكن هجرناه من قب ل لأبدى صدوده وجفانا
شيمة فى الملاح قد أحسن الده ر بإعلامها بنا وأسانا
وصباح المشيب يظهر ما كا ن ظلام الشباب عنه ثنانا
ما مشينا إلى الصبابة إلا وخطانا معدودة من خطانا
فأدرها معسجدات كؤوساً مطلعات من الحباب جمانا

وشعره وإن لم يكن من هذا النوع الذى يجعلك تضعه فى الدرجة الأولى أو الثانية من طبقة فحول الشعراء — فهو إلى شعر الانحطاط أقرب — إلا أنه يؤرخ ناحية من الحياة الأدبية لذلك العصر . . .

والشىء الذى يلفت النظر هو إقدام ابن المماتى على التأليف فى نواحى المعرفة المختلفة فى الأدب والشعر واللغة والدين والفقه والسياسة والاقتصاد — وهذا الذى رفعه إلى رتبة الوزارة وجعل الدولة تنيط به أكبر المراكز وتطلق يده فى أدق الشؤون يصرفها بواسع علمه وحنكته ودرايته .

قلد أسعد ابن المهذب ديوان الجيش . وقد ورث هذا المنصب عن أبيه فتصدر به مدة طويلة . ثم أضيف إليه ديوان المال ، الذى يعتبر فى كل عصر من أهم الدواوين ، أى أن مالية الدولة والدفاع عن كيانها قد نيطا به . فجمع إلى وزارة المال وزارة الدفاع واحتفظ بهما حتى أوائل سلطنة العادل حين أفل نجمه مما سنشير إليه فيما بعد .

يصف ياقوت الرومى هذا الرجل بقوله :

« أحد الرؤساء الأعيان الجلة ، والكتاب الكبراء المنزلة . ومن تصرف بالأعمال . وولى رياسة الديوان ، وله أدب بارع . وخاطر وقاد مسارع . وقد صنف فى الأدب ، وأصله من نصارى أسيوط . قدموا مصر ، وخدموا وتقدموا . وولوا الولايات . وهو مع ذلك من أهل بيت فى الكتابة عريق . وهو كالمستولى على الديار المصرية . ليس على يده يد ، والمسمون بالخلافة محجوبون ، ليس لهم غير السكة والخطبة ، وكان إلى مماتى كثير من الأعمال » .

وقال ابن خلكان :

« هو القاضى الأسعد ، أبو المكارم أسعد بن الخطير ، الكاتب الشاعر ، وكان ناظر الدواوين بالديار المصرية ، وفيه فضائل ، وله مصنفات عديدة ، ونظم سيرة صلاح

الدين — رحمه الله — ونظم كتاب كليلة ودمنة ، وله ديوان شعر ، رأيته بخطه . » ونقلت منه مقاطيع . » وترجم له العينى فى « عقد الجمان » والسيوطى فى « حسن المحاضرة » والزبيدى فى « تاج العروس » والمقريزى فى « الخطط » ، ولم يتوسع أحد من هؤلاء المؤرخين بسرد تاريخ حياته . وظل ياقوت أوسع من ترجم له فى هذا الباب وإن اتفقوا جميعاً على أنه شغل أرفع المناصب فى الدولة الأيوبية ، وكان إلى هذا كاتباً شاعراً مؤرخاً ألف وصنف ، وكان ذا مركز اجتماعى مرموق .

* * *

هذا المركز السامى الذى وصل إليه بأدبه وذكائه وإخلاصه ، هو الذى ألب عليه الخصوم فكثر حاسدوه ومبغضوه ، وكثر الدس عليه ، فلقى كل عنت ورمى بالوشايات ، ووضعت فى طريقه العثرات ، شأن كل من تكون له يد عليا فى تصريف شؤون الدولة ، ولكنه تخطى كل ذلك دون أن يهتم بوشايات الواشين ، وكيد الحاسدين ، فمدحه الشعراء وهجوه ، ولم يتورع بعضهم أن يتخذ دينه الجديد وسيلة لغمزه ، فقال المهذب بن الخيمى :

وحديث الإسلام ، واهى الحديث

باسم الثغر عن ضمير خبيث

لو رأى بعض شعره سيبويه
زاده فى عـــلامة التأنيث

ولكنه كان أرفع من أن يهتم بهذه الترهات ، كان يلقى خصومه بصدر رحب وابتسامة ناعمة شأن أكثر السياسيين الذين يعيشون حياتهم فى الالتواء .

كان مركزه فى عهد صلاح الدين وطيداً ، ولكن لم يكد الملك العادل أبو بكر بن أيوب — شقيق صلاح الدين — يملك الديار المصرية ، حتى انقلبت الدنيا فى وجه ابن المماتى وشعر من الأعماق أن نهايته قد دنت . وقد تنبأ أبوه بهذه النهاية المحزنة حين أخرج من ديوانه فى قصر السلطان ، وألمعت كتب الأدب إلى هذه القصة بما يلى :

« ومن عجيب ما جرى للخطير ، أنه كان يوماً جالساً فى ديوانه فى حجرة موسومة بديوان الجيش من قصر السلطان بمصر ، وكانت حجرة حسنة مرخمة منمقة ، فجاءه قوم وقالوا له : قم من هنا . فقال لهم : ما الخبر ؟ فقالوا : قد تقدم الملك العادل أبو بكر بن أيوب بأخذ رخام هذه الحجرة ، وأن يعمر به موضعاً آخر . فخرج منكسراً كاسفاً ؛ فقيل له فى ذلك فقال : لقد استجيبت فينا دعوة ، وما أظننى أجلس فى ديوان ، أما سمعتم أنه إذا بالغوا فى الدعاء

علينا قالوا : خرب الله ديوانه ، وما بعد الخراب إلا اليباب .
ثم دخل منزله وحم ، فلم يخرج منه إلا ميتاً [١] .

لا شك أن ميتته كانت إثر هذا الكبت الذى ضاق به صدره من تقلص سلطته فى ديوان الجيش بعد أن انتقل من يد صلاح الدين إلى يد الملك العادل .

أما قصة الابن الوزير أسعد فهى أدهى وأمر .

والواقع أن الخصومة لم تكن بينه وبين الملك العادل بل بينه وبين وزيره صفى الدين بن شكر ... فقد كانت بينهما ضغائن وأحقاد يوم كانت السلطة بيد ابن المماتى ، فلما جاءت الفرصة المواتية لابن شكر لم يتردد فى أن يبطش بخصمه اللدود أشد البطش ... ولكن كيف ينتقم ولا يزال ابن المماتى يتمتع بمركز رفيع حتى عند الملك العادل ، عمد إلى الدس والمكيدة ، فصانعه وجامله ، وأبقاه فى مركزه ، بل ناط به الكثير من الأعمال ، ولم تكن هذه المجاملة خالية من شوائب الحقد ، فقد استبقاه فى مركزه ليوقع به ، كان يدبر له المؤامرات ويحيك الدسائس فى الخفاء ، فقد ألب الناس عليه ، وبدأت القصص تختلق والروايات تروى عن جهله وحمقه ، بل تعدى هذا إلى الطعن فى أمانته

(١) معجم الأدباء ج ٦ ص ١١٢

وكرامته . . . ماذا ؟ كان لا يذكر اسمه بالأمس إلا مشفوعاً بالتجلة والتكريم فأصبح مضغة فى أفواه الناس . . . ما أغرب طباع البشر ؛ إن الناس لا تؤمن إلا بالقوة والسيطرة ، فلا يكاد الرجل يضعف ويتخاذل حتى يلوون وجوههم عنه . ولا يتورعون — إذا سقط — أن يدوسوه . كانوا بالأمس يحنون ظهورهم احتراماً له وتبجيلا لقدره وعلمه ، ويتقربون إليه . يكيلون له المدح والثناء ، فأصبح نكرة من النكرات ، بل أصبحت التهم توجه إليه كأنه لص من اللصوص ... أصبح هذا الوزير مديناً ، وأقبل الناس يطالبونه بالحق وبالباطل . أين ثروته ؟ أين دوره وقصوره ؟ أين هذه الغلال التى كانت توزع من بيت أبيه وجده فى ساعات الشدة على الفقراء ؟ كيف دار به الزمن ؟ كيف انقلبت عليه الناس ؟ أين أصدقاؤه ؟ أين أنصاره ؟ أين حاشيته ؟ لم يعد يرى أحداً ، فقد ابتلعتهم دنيا الغدر وغاض من وجوههم ماء الحياء . . .

ماذا ؟ . . . لقد استطاع ابن شكر خصمه السياسى أن يجعله مديناً ، وأن يضع كرامته موضع الاتهام . وليس أبلغ فى الضغينة من الحقد الذى يتأكل صدور بعض الرجال الذين تستبد بهم شهوات الحكم فيلجأون إلى أخس الوسائل

للانتقام من خصومهم الأقوياء . . .

ولنسمع الآن كيف تروى كتب الأدب . هذه القصة المشجية التى نقرأ بين سطورها الوفاء المبطن بالغدر . واليد الناعمة التى لا تكاد تصافح حتى تطعن بخنجر مسموم . نعم . لنسمع قصة الغدر يرويها الوزير نفسه . فقد ذكرنا آنفاً أن ابن شكر لم يجسر على الإيقاع به حين تسلم الحكم « بل فوض إليه جميع الدواوين . التى كانت باسمه قديماً . وبقى على ذلك سنة كاملة . ثم عمل له المؤامرات . ووضع عليه المحالات . وأكثر فى التأويلات . ولم يلتفت إلى أعذاره . ولا أعاره طرفاً لاعتذاره . فنكبه نكبة قبيحة . ووجه عليه أموالا كثيرة . وطالبه بها . فلم يكن له وجه . لأنه كان عفيفاً ذا مروءة . فأحال عليه الأجناد . فقصدوه وطالبوه وأكثروا عليه وآذوه . واشتكوه إلى ابن شكر . فحكمهم فيه [1] » . وكأنما لا علم له بهذه المؤامرة التى حاكتها يداه الأثيمتان . وإذ عجز عن تحصيل أموال الدائنين حكّم الأجناد فيه يطالبونه بالقوة وحرّض الرعاع وحثالات البشر يتطاولون على رجل كانت بيده مقاليد مصر . . .

(١) معجم الأدباء — ج ٦ ص ١١٤

والآن فلنستمع إلى قصته يرويها بقلب مضطرب بائس ونفس جزعة مكلومة قال :

« علقت فى المطالبة على باب دارى بمصر ، على ظهر الطريق فى يوم واحد ، أحد عشرة مرة ، فلما رأوا أنى لا وجه لى قيل تحيّل ، ونجّم هذا المال عليك فى نجوم فقلت : أما المال فلا وجه له عندى ، ولكن إن أطلقت وملكت نفسى ، استجديت من الناس ، وسألت من يخافنى ويرجونى ، فلعلنى أن أحصل من هذا الوجه ، فأما من وجه حاصل فليس لى بعد ما أخذتموه منى درهم واحد ، فنجم المال علىّ ، أى قسط ، وأطلقت وبقيت مديدة — أى مدة قصيرة — إلى أن حل بعض نجم المال علىّ فاختفيت واستترت وقصدت القرافة — أى المقبرة — وأخفيت نفسى فى مقبرة الماذرائيين . وأقمت بها مدة عام كامل وضاق الأمر علىّ . فهربت قاصداً الشام ، على اجتهاد من الأستاذ ، فلحقنى فى بعض الطريق فارس مجد ، فسلّم على ، وسلّم إلى مكتوباً ، ففضضته وإذا هو من الصفى بن شكر ، يذكر فيه : لا تحسب أن اختفاءك عنى كان بحيث لا أدرى أين أنت ؟ ولا أين مكانك فاعلم أن أخبارك كانت تأتينى يوماً يوماً ، وأنت كنت فى قبور الماذرائيين

بالقرافة ، منذ يوم كذا ، وأننى اجتزت هناك ، واطلعت فرأيتك بعينى . وأنك لما خرجت هارباً عرفت خبرك ولو أردت ردك لفعلت . ولو علمت أنك قد بقى لك مال أو حال لما تركتك . ولم يكن ذنبك عندى مما يبلغ أن أتلف معه نفسك ، وإنمـــا كان مقصودى أن أدعك تعيش خائفاً فقيراً ، غريباً مسحجاً — أى مشرداً — فى البلاد ، فلا تظن بأنك هربت منى بمكيدة صحت لك على ، فاذهب إلى غير دعة الله . قال : وتركنى القاصد وعاد ، فبقيت مبهوتاً إلى أن وصلت إلى حلب » .

تصوروا أية نهاية محزنة وصل إليها هذا الرجل ! كان ذا مال كثير وجاه عريض وعلم واسع وسمعة طيبة — تصوروا وزيراً كانت بيده مقاليد مصر اضطره خصمه السياسى إلى الانزواء فى المقابر ، لم يشفع له مركزه ولا ثروته ولا جاهه ولا علمه ولا خدماته لوطنه . فأزيح من مركزه وأخرج من قصره ، وجرد من ماله وحبس ، وسلط عليه رعاع الناس وتطاول عليه الأجناد القساة فآذوه وأثقلوا عليه ، وإذ ضاق بهذه الحالة المزرية طلب أن يطلق سراحه ليستجدى ويسدد ما عليه ! يا للشهوات كيف تنحدر ببعض النفوس إلى إذلال الخصوم السياسيين إذلالا منكراً لا تغتفره الأيام ! . . .

نعم . أصبح وزير صلاح الدين طريد النعم . وحالت حاله من حياة البذخ والترف فى عاليات القصور إلى حياة الفاقة والبؤس فى موحشات القبور — حياة يفضلها الموت. هذا الوزير الذى أحرق جده سمكة من العنبر بألف دينار تلبية لهواه بعد سكرة طارئة أصبح يفر من دائنيه الموهومين . ويختفى فى المقابر . كان خصمه يعلم بمختبئه . وقد تركه سنة كاملة . يعيش عيشة الخوف والهواجس والحرمان . ولما شفى غلته من إذلاله ، مَنّ عليه بالحرب، ولم يترك له التنعم بهذه اللذة أيضاً ، بل أفهمه — وهذا منتهى الصغار — أنه كان على علم بمختبئه ، وبعزمه على الحرب ، وأنه كان يحيطه بنطاق واسع من عيونه وجواسيسه ، وكان يمر به من حين لآخر ليطمئن على أنه يعيش عيشة الخائفين الحذرين فى المقابر . أما وقد اطمأن إلى أنه لم يبق لديه مال ولا حال ، فليذهب فى بلاد الله الواسعة ، وليصارع الأهوال ، بعيداً عن أرض الوطن ، يستجدى اللقمة استجداء ، ويعيش فى دنيا العوز ، والفقر والتشرد . . .

لقد انتصر الحقد ، وخذلت النفس . إن السياسة لا ترحم ! . . .

* * *

من مصر إلى حلب : ما أبعد المسافة ! رجل فى الستين من عمره ، وقد عاش فى رفيف النعم يخرج من وطنه مشرداً وقد هدته هذه النكبة الكبرى ، وما زال يقطع الفيافى والقفار وينتقل من بلد إلى بلد ، ومن جبل إلى سهل ، ومن سهل إلى حزن ، وما زال على شيخوخته يصارع الأهوال ويعانى عذاب السفر حتى وصل إلى حلب ، وكأنما أراد — وحلب فى حوزة الملك الظاهر بن صلاح الدين — أن يختتم حياته فى هذا البيت الكريم . وإذ كانت صلته بالوزير الجليل جمال الدين الأكرم على بن يوسف القفطى ، فقد قصده فرحب به الوزير القفطى أجمل ترحيب وأخذه ضيفاً عليه ، وأقام عنده مدة . وعلم الملك الظاهر بمقدمه وبقصته فعطف عليه وأكرمه ، وخصص له راتباً ، كل يوم ديناراً صوريًّا وثلاثة دنانير أخرى أجرة دار ، وكان يصل إليه كل ثلاثة أشهر ثلاثون ديناراً غير بر وألطاف — أى صلات وصدقات — ما كان يخليه منها ، وأقام عنده حتى آخر حياته . . .

وقد أثر به هذا التكريم ونزلت هذه الحفاوة من نفسه منزلة كريمة ، فنسى — أو كاد — ألم النكبة ، وكانت حلب فى عهد الملك الظاهر معمورة بالعلماء والأمراء

والفضلاء ، مؤرخين وأدباء وشعراء كادوا يعيدون عهد بلاط سيف الدولة ، فكانت تعقد الحلقات الأدبية والمناظرات العلمية فى قاعة الظاهر — القاعة الكبرى التى تجثم فى قلب القلعة ، أو فى قصر صديقه الوزير القفطى أو فى المدرسة الحلوية . . . وقد اندمج الوزير أسعد المماتى ، المضطهد السياسى ، بهذا الوسط العلمى فنظم وكتب ، وأتيح له وهو فى منفاه أن يضم إلى سلسلة مؤلفاته كتاباً جديداً سماه «كرم النجار فى حفظ الجار» عمله للملك الظاهر ، ولا شك أنه قص فيه بأسلوب حزين مؤثر قصة فراره . وكم يؤلمنا أن لا نعرف أين هذا الكتاب .

إذن ، لم تخل حياة ابن المماتى من العمل الأدبى فكتب ونظم ، وكان خفيف الظل عذب الروح تجرى النكتة الحادة على لسانه فتعمل أثرها ، وقد ذكر له صديقه القفطى عدة نوادر هنا مجال ذكرها . . .

لقد أحب حلب ، ونزلت من نفسه منزلة طيبة ، وراقه منها شتاؤها . . . كيف ؟ هنا موضع العجب ، رجل فى الستين من عمره ، أى فى هذه السن التى تؤثر فيها لفحات البرد ، ينتقل من جو مصر الدافئ إلى جو حلب القارس . . . فما الذى أحبه من شتائها ؟ أحب مدينة سيف الدولة وهى

مغمورة بالثلج ، وهو منظر غير مألوف للمصرى ، ولا سيما فى ذلك العصر حيث لم تكن الأسباب ميسورة للسفر إلى البلدان التى تكثر فيها الثلوج . . . ماذا ؟ كيف تبسم السماء عن الياسمين ، كيف يستحيل الليل أبيض كالصباح . ماذا ؟ أحباب الحميا أم ثغور الملاح ؟ إنه يرى حلب — هذه العروس الحسناء قد لبست كل ما تتجمل به العروس من حلى ، ففاض قلبه بالشعر ، وكتب قصائد ومقطوعات كثيرة وصف فيها حلب وقد لبست هذا الثوب الجميل من الأقاح والياسمين :

لمــا رأت عينى الثلـ   ج ساقطاً كالأقاحى

وصار ليــل الثرى منـ   ه أبيضاً كالصبــاح

حسبت ذلك من ذو   ب در عقــد الوشاح

أو من حباب الحميا   أو من ثغور المــلاح

فما على داخل النـــا   ر بعد ذا من جنــاح

وما كان الشعر غايته ، بل كان ينفس هواجسه كيفما اتفق — والعصر بدء عصر الانحطاط فى اللغة والشعر — وهكذا، فقد ظل يلهو بوصف الثلج ويمدح الملك ، ويتنادر مع أصحابه ، ويشغل نفسه بالقراءة والتأليف بغية نسيان نكبته ، ولكن هيهات ، فقد ظل فى لوعة ووجد وفى حرقة وكمد

حتى الثامن عشر من جمادى الأولى . سنة ست وستمائة ،
حيث وافاه القدر فدفن بظاهر حلب بالقرب من قبر
الهروى ، فكان لموته رنة حزن عميقة فى جميع الأوساط حيث
مشت حلب كلها فى جنازته تودع فيها العلم والفضل والأدب .
نعم ، كان لموته رنة حزن عميقة ، وأى حزن أوقع فى النفس
من موت الغريب ولا سيما إذا كان فى مركز رجل كالذى
تحدثنا عنه . . .

هذه هى نهاية هذا الوزير المنسى الذى ذهب فريسة
الحقد السياسى ، بعيداً عن أهله ووطنه .

على هامش الصراع بين الأخوين : الأمين والمأمون

فتنة بغداد

قصيدة منسية للشاعر الأعمى

تميزت النهضة الأدبية المعاصرة بهذه الدراسات التي حاولها الباحثون عن أدبائنا وشعرائنا منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا هذا . ويلاحظ المتعمق في دراسة الأدب العربي القديم أن بعض الشعراء قد أهملوا ولم ينالوا العناية التي نالها زملاؤهم .

والشعراء منهم من يطوى وهو حي ، ومنهم من ينشر وهو ميت ، فمن أي فئة هذا الشاعر المنسي .

لقد حاولت السياسة أن تطويه وهو حي ، وها هي ذي محاولة أدبية لبعث ذكراه وهو ميت . كان من خصوم السلطان فتعرض لما يتعرض له كل مفكر يبوح برأيه ، ويعلن عن ميوله وهواجسه ، فطمست السياسة ذكره وحاولت أن تطمس أدبه .

وجناية السياسة على الأدب مما تعرفه كل العصور وكل الأمم ، ولكن لا تلبث تلك البثور أن تتلاشى ويظل الأدب قوى المظهر ، قوى الطابع ، لا تؤثر فيه العواطف مهما ثارت وحاولت أن تقلل من روائه وجماله .

ويظهر أن شاعرنا هذا كان من خصوم كل سلطة تميل مع الهوى ، فكان من البديهى أن تناوئه السياسة . وأن لا يجسر أحد من أدباء عصره الذين اشتغلوا بالتدوين أن يخصوه بدراسة أو ببحث أو أن يعرضوا إلى ذكره بالتطويل . فضاع شعره أو ضاع أكثره ولم يبق منه إلا النزر اليسير ، على أن ما وصل إلينا منه يدل على أن الشاعر كان جياش العاطفة ، صادق الإحساس ، قوى التصوير ، وكان إلى هذا ناقداً لاذعاً ، كثير التهكم ، كثير الهزء والسخرية ، لا يداور فى معارضة ولا يخشى أن يناله أذى أو يمسه ضر ، فقد كان من هؤلاء الشعراء السياسيين الذين يناصبون خصومهم العداء بقوة وإيمان دون أن يحسبوا حساباً ما للاضطهاد الذى ينزل بهم .

وبعد فمن هو هذا الشاعر المنسى ؟ إن أخباره المبتسرة منثورة هنا وهناك فى كتبنا الأدبية والتاريخية ، غير أن الأدباء المعاصرين قد أهملوه مع أنه يستحق أن يفضل على

الكثيرين من الشعراء الذين درس شعرهم ودرست حياتهم ، ونالوا أوفى رعاية من مباحث الكتاب وعنايتهم .

* * *

شاعرنا المنسى هذا ، هو الخريمى أو الخزيمى ، أو الشاعر الأعمى — وفى رواية الأعور — واسمه إسحق يعقوب ، عاش فى عصر الرشيد واتصل بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وشهد هذا الصراع العنيف الذى قام بين الأمين والمأمون ، كما شهد هذه الثورات العاصفة التى أثارتها الشعوبية من جهة والعصبيات من جهة ثانية ، ومطامع القواد من جهة ثالثة . فكان له رأى جاهر به ، فأوغر عليه صدر السلطان ، فقد سجل فى شعر بليغ ثورة بغداد حين وقعت فريسة المطامع والشهوات فكان من أبلغ الشعراء الذين عرضوا لوصف مظاهر الفتنة ، فاستطاع أن يجمع بين « الموضوعية » و « الذاتية » فى شعر رصين يمتاز إلى سهولته بالقوة وبرسم صور نفسية تدمع العين وتهز النفس هزاً .

* * *

ومن المؤسف أن لا تعرض له كتبنا الأدبية بما يشفى الغليل ، فقد رجعت إلى الأغانى ، وإلى البيان والتبيين ،

وإلى الكامل وإلى الأمالى ، وإلى معجم الأدباء ، فإذا جميعها تذكره فى سطور مستشهدة ببعض مقطوعات من شعره . على أن المؤرخ الطبرى قد استغل شعره السياسى فى وصف فتنة بغداد فنشر قصيدته الكبرى ، وهى لون من شعر الملاحم ، تدل دلالة بليغة على شاعرية الشاعر ، وصدق إحساسه ودقة تصويره ، مع أنفته وكبريائه ، وخصومته السياسية ونزعته الإنسانية معاً ، وهذه القصيدة فى أكثر من مائة بيت ، وهى سهلة واضحة ، قوية السبك ، مشرقة اللفظ ، ذات جرس موسيقى . وهى إلى سهولتها وإلى عذوبتها وإلى جمالها الفنى لا بد لفهمها من الرجوع إلى هذه البحوث التى كتبها المؤرخون عن الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون وصراعهما الدامى فى سبيل الملك .

* * *

كيف استوى الأمين على دست الخلافة ؟

كيف لعبت السياسة دورها فأوغرت صدر الأخ على أخيه ؟

ثم كيف مدت البطانة شباكها فزينت للأمين أن ينكث عهد أبيه ويجعل ولاية العهد من بعده لابنه موسى ؟

وكيف مهدت للمأمون أن يقابل الشر بالشر وأن يجعل

الخلافة من حقه ؟

ثم كيف قامت الاضطرابات والثورات والفتن ؟ من ثورة الجند والقواد على الأمين مطالبينه بالمال والأرزاق ، بعد أن ضعف سلطانه بمقتل قائده على بن عيسى ، إلى هذه الخصومة العنيفة بين قواد المأمون ووزرائه — بين طاهر ابن الحسين والفضل بن سهل وأتباعهما ، إلى هذه الفتن التى قامت ببغداد والتى ظلت أشهراً عدة نشطت خلالها عصابات اللصوص وشراذمة الصعاليك ، فكان النهب وكان السلب حتى طغى سيل غاراتهم على تلك المدينة المنكودة .

نعم لا بد لمن يريد أن يتفهم قصيدة الخريمى فى نكبة بغداد من أن يرجع لهذه النصوص التاريخية قليلا . ولست أريد أن أقول إن القصيدة من الغموض بحيث تدق معانيها على فهم القارئ ، فهى سهلة كل السهولة ، واضحة كل الوضوح ، ولكن الرجوع إلى حوادث التاريخ يجعلك أكثر فهماً لروح الشاعر ، وأكثر إيماناً بشاعريته ، فقد شهد الخريمى الحروب الكلامية والحروب الدموية التى تقدمت تسلم المأمون صولجان الملك ، وشهد اندلاع الثورة فى بغداد وفى أطراف بغداد ، وكيف أغار الرعاع والجنود المرتزقة على العاصمة ينهبونها ويهدمون قصورها ، ويستبيحون حرماتها

ويعتدون على نسائها ، فكان من أبلغ الشعراء العباسيين الذين وصفوا هذه المآسي أدق وصف وأبلغه ، ومن يدري ؟ فقد يكون الخريمي من أنصار المأمون ، وقد يكون ممن ينتمي إلى أحد هذه المذاهب والفرق التي كافحها الأمين ، وقد تكون النزعة الإنسانية هي التي أوحت إليه أن يصور تلك الفواجع وأن يرسم تلك النبرات الحزينة . كل هذا جائز وهذا ما سنتبينه من سجوف هذه الصور التي تضمنتها القصيدة .

* * *

أحب الرشيد قبل أن تدنو منيته أن يوطد دعائم الملك لولديه الأمين والمأمون ، ولكن وازعاً نفسياً كان يقول له إن خلافاً سينشب بين الأخوين على الملك . والقصة التي يرويها المسعودي في تاريخه « مروج الذهب » تنبيء عن ذلك ، فقد مثل الأمين والمأمون في يوم ما ، بين يدي الرشيد ، وكان عنده الكسائي فطلب إليه أن يمتحنهما فامتحن الكسائي ذكاءهما وأدبهما ودرايتهما ، فما كان منه إلا أن وصفهما بقوله :

« أرى قمري مجد وفرعي خلافة   يزينهما عرق كريم ومحتد

يا أمير المؤمنين : هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ،

وتمكنت فى الثرى عروقه ، وعذبت مشاربه ، أبوهما أغر نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ، يحكمان بحكمه ، ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان فى سعادته ، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما » .

وقد سر الرشيد من وصف الكسائى ، وضم ولديه ، ثم جمع يديه عليهما ولم يبسطهما حتى انحدرت الدموع على صدره ، ثم أمرهما بالخروج ، فلما خرجا ظل الكسائى يراقب هذا الموقف الغريب الذى فسره الرشيد بقوله :

«كأنك بهما وقد حم القضاء ، ونزلت مقادير السماء ، وبلغ الكتاب أجله ، قد تشتتت كلمتهما ، واختلف أمرهما ، وظهر تعاديهما ، ثم لم يبرح بهما حتى تسفك الدماء وتقتل القتلى وتهتك ستور النساء ويتمنى كثير من الأحياء أنهم فى عداد الموتى » .

وقد صدقت نبوءة الرشيد ، فما كاد يودع الدنيا حتى شب بينهما الخلاف على الملك برغم البيعة التى علقها فى الكعبة والتى عقد فيها الأمر لعبد الله المأمون بعد أخيه محمد الأمين .

بويع الأمين بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه هارون الرشيد ، ودامت خلافته أربع سنين وستة أشهر ، وكان

أصغر من المأمون بنصف عام ، وكانت أيامه من خلعه إلى مقتله سنة ونصفاً وثلاثة عشر يوماً حبس فيها يومين . . .

فما هى الأحداث الدامية التى مثلت على مسرح العراق ، خلال هذه الفترة القصيرة ؟

أول ما فكر فيه الأمين هو خلع أخيه المأمون من ولاية العهد ، وقد استطلع رأى القواد الذين كانوا يحيطون به فأدلى كل واحد برأيه حسب أهوائه ومطامعه ، فمنهم من حذره من نكث العهد ، ومنهم من وافقه على الخلعة ، وكان فى طليعة القواد الذين وافقوه على خلع أخيه على بن عيسى ، فسيره فى جيش عظيم نحو المأمون ، ولم يكد يقترب جيش ابن عيسى حتى اصطدم مع طاهر بن الحسين — وهو من أعظم قواد المأمون — بقتال عنيف انتهى بهزيمة جيش الأمين وانهيار أمانيه ، وما كانت هذه الصدمة لتحسم الخلاف بين الأخوين ، فقد تجدد الصراع الدامى وما زال حتى حوصرت بغداد حصاراً عنيفاً انتهى بانهيار سلطة الأمين وتمهيد الطريق لينتقل المأمون من خراسان إلى بغداد ويتسلم صولجان الملك .

* * *

يصف المسعودى الأثر الذى تركه حصار بغداد على عهد الأمين بقوله : « وقد خربت الديار ، وعفت الآثار ،

وقاتل الأخ أخـــاه ، والابن أباه . هؤلاء محمدية وهؤلاء مأمونية ، وهدمت المنازل وأحرقت الديار وانتهبت الأموال » .

وبعد أن يصف الحصار يقول :

« وظلت الحرب بين الفريقين أربعة عشر شهراً ، فضاقت ببغداد بأهلها وتعطلت المساجد ، وتركت الصلاة ونزل بها ما لم ينزل بها قط مثله مذ بناها المنصور ». وهذا الذى أثار الشعراء ليصفوا مدلهات هذه الفتنة العمياء ، فكان الخريمى أبلغهم وأدقهم فافتتح قصيدته الكبرى بوصف بغداد فى أيام زهوها بقوله :

قالوا ولم يلعب الزمان ببغدا ... د وتعثر بهـــا عواثرهـــا
إذ هى مثل العروس باديها ... مهول للفـــتى وحاضرها
جنة دنيا ، ودار مغبطة ... قل من النائبـــات واترها
درت خلوف الدنيا لساكنها ... وقـــل معسورها وعاسرها
وانفرجت بالنعيم وانتجعت ... فيهـــا بلذاتهـــا حواضرها
فالقوم منها فى روضة أنف ... أشرق غب القطان زائرها
من غره العيش فى بلهنية ... لو أن دنيا يدوم عامرها
دار ملوك رست قواعدها ... فيها وقرت بهـــا منابرها
أهل العلا والثرى وأندية الـ ... فخر إذا عددت مفاخرها
أفراخ نعمى فى إرث مملكة ... شد عراها لهـــا أكابرها

فلم يزل والزمان ذو غير يقدح فى ملكها أصاغرها
حتى تساقت كأساً مثملة من فتنة لا يقـال عاثرها
وافترقت بعد ألفـة شيعاً مقطوعة بينهـا أواصرها

وبعد هذا العرض الخاطف فى وصف الشرر المتطاير من الفتنة يقف الشاعر وقفة الرجل الأبى الذى صهرته الحياة ليقرع أولى الأمر بوخزاته الأليمة وروحه الشاعرة فيقول :

ياهل رأيت الأملاك ماصنعت إذ لم يزعها بالنصح زاجرها
أورد أملاكنـا نفوسهـم هوّة غى أعيت مصادرها
ما ضرها لو وفت بموثقها واستحكمت فى التقى بصائرها
ولم تسافك دماء شيعتهـا وتبتعل فتيـة تكابرها
وأقنعتهـا الدنيا التى جمعت لها ، ورغب النفوس ضائرها
ما زال حوض الأملاك ... مسجورها بالهوى وساجرها
تبقى فضول الدنيـا مكاثرة حتى أبيحت كرهاً ذخائرها
تبيع ما جمع الأبوة للأبنـا ء ! لا أربحت متاجرها

ثم يلتفت الخريمى إلى بغداد فيذكر ما آلت إليه قصورها وبيوتها ، وما انتهت إليه قراها ودساكرها من أثر هذا الصراع الدامى فيبكى بكاء محب صادق فى حبه للبلد الذى عاش فى كنفه وينشد شعره الحزين بلوعة باكية :

يا هل رأيت الجنان زاهرة يروق عين البصير زاهرها

وهل رأيت القصور شارعة تكن مثـــل الدمى مقاصرها
وهل رأيت القرى التى غرس الـ أملاك مخضرة دســـاكرها
محفوفة بالكروم والنخل والريـ حان قد دميت محاجرها

إلام انتهت بغداد ؟ — جنة الدنيا — يجيب بقوله :

فإنها أصبحت خلايا من الإنـ سان قد دميت محاجرها
قفراً خلاء تعوى الكلاب بها ينكر منها الرسوم داثرها
وأصبح البؤس ما يفارقهـــا إلفاً لها والسرور هاجرها
بزند ورد والياسرية والشط ين حيث انتهت معابرها
وبالرحى والخيزرانيـــة العلـ يا التى أشرفت قناطرها
وقصر «عبدويه» عبرة وهوى لكل نفس زكت سرائرها
فأين حراسهـــا وحارسهـــا وأين مجبورها وجابرها
وأين خصيانهـــا وحشوتهـــا وأين سكانهـــا وعامرها
أين الجرادية الصقالب والأ حبش تعدو هدلا مشافرها
ينصدع الجند عن مراكبها تعدو بهـــا سرباً ضوامرها
بالسند والهند والصقالب والـ نوبة شيبت بهـــا برابرها
طيراً أبابيـــل أرسلت عبثاً يقدم سودانهـــا أحامرها

وكأنما الشاعر يقف قليلا أمام هذا المنظر المؤلم ليرجع القهقرى إلى الماضى ويسائل نفسه مشدوها :

أين الظباء الأبكار فى روضة الـ ملك تهادى بهـــا غرائرها

أين غضاراتها ولذتها وأين محبورها وحابرها
بالمسك والعنبر اليمانى والأطـ ـياب مشبوبة مجامرها
يرفلن فى الخز والمجاسد والمو شى مخطومة مزامرها
فأين رقاصها وزامرها يجبن حيث انتهت حناجرها
تكاد أسماعهم تسل إذا عارض عيدانها مزاهرها
أمست كجوف الزمان خالية يسعرها بالجحيم ساعرها
لا تعلم النفس ما يباينها من حادث الدهر أو يباكرها
تضحى وتمسى دريئة غرضاً حيث استقرت بها شراشرها
لأسهم الدهر وهو يرشقها محنطها مرة وباقرها

ولا يكاد ينتهى الشاعر من هذه الذكريات الممضة حتى نراه يلجأ إلى حكمته وثاقب رأيه فيرفع الأمر من يدى القضاء والقدر ويلقيه على عاتق بغداد المغموسة فى حمأة الترف والجهل والنائمة عن مجدها الناشيء فتنفجر عن هذه الصرخة الملتهبة صيحات حزينة فيقول :

يا بؤس بغداد ! دار مملكة دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبالـ ـحرب التى أصبحت تساورها
كم قد رأينا من المعاصى بها كالعاهر السوء نام عاهرها
حلت ببغداد وهى آمنة داهية لم تكن تحاذرها

طالعها السوء من مطالعه ... وأدركت أهلها جرائرها

رق بها الدين واستخف بذى الـ ... فضل وعز النساء فاجرها

وخطم العبد أنف سيده ... بالرغم واستعبدت مخادرها

وصار رب الجيران فاسقهم ... وابتز أمر الدروب ذاعرها

ثم يصف الحرب التى دارت فى أرض بغداد وفى أطرافها فيصف هول القتال ، ويصف حيل المحاربين ، وعدد الحرب وهذه الفوضى التى انبثقت فى كل ناحية فيقول :

من ير بغداد والجنود بها ... قد ربقت حولها عساكرها

كل طحون شهباء باسلة ... تسقط أحبالها زماجرها

تلقى بغى الردى أوانسها ... يرهقها للقاء طاهرها

والشيخ يعدو حزماً كتائبه ... يقدم أعجازها يعاورها

ولزهير بالقول مأسدة ... مرقومة صلبة مكاسرها

كتائب الموت تحت ألوية ... أبرح منصورها وناصرها

يعلم أن الأقدار واقعة ... وقعا على ما أحب قادرها

* * *

وهكذا يمضى الخريمى فى وصف الحرب وصفاً واقعياً ، وفى وصف فتنة بغداد ، فلا يترك ناحية من نواحيها دون أن يعرض لها ، فمن وصف مظاهر الثورة ، إلى مكائد البطانة والقواد ، إلى التحام الجيشين ، إلى هذه المواقع التى

جرى فيها القتال ، إلى وقوف الأعمال واضطراب المتاجر ، وإلى هجوم الرعاع على أسواق بغداد ، إلى هذا الذعر الذى شمل قلب المدينة وأطرافها ، وكأنه كان يصف بنزعته الفنية ما يسجله المؤرخ بلسان الواقع من ارتفاع أثمان القوت مثلا ، إلى هذا الحصار الذى دام طويلا حتى أصبح الأثرياء والتجار يتمنون لو خذل الأمين وانتصر المأمون ليستتب الأمن وتسود الطمأنينة ، إلى غير ذلك من الكوارث والفتن التى انصبت على عاصمة الخلافة الإسلامية فى تلك الأيام السود .

وقد كان الخريمى دقيق الحس ، بارع الوصف ، حتى لم يهمل فى وصفه أهون عدد القتال ، فقد ذكر « المقلاع » كما ذكر المنجنيق :

فى كل درب وكل ناحيــة　　　خطارة يستهــل خاطرها
بمثل هام الرجال من فلق الصخ　　　ر يزود المقــلاع باثرها
كأنما فوق هامهــا عدف　　　من القطا الكدر هاج نافرها
والقوم من تحتها لهم زجل　　　وهى ترامى بهــا خواطرها

أرأيت كيف يصف هذه الأحجار التى يقذفها المقلاع أو التى تقذفها سواعد الطرارين العراة — جنود الهرش !

يشير المسعودى إلى هذه الحادثة بقوله :

جاء قائد خراسانى إلى طاهر بن الحسين ، أكبر قواد

المأمون . وطلب إليه أن يخصه بحرب يوم . فأجابه إلى طلبه بعد أن حذره من جماعه الأمين . ولكن الخراسانى لم يهتم لهذا التحذير وقال :

« ما يبلغ من كيد هؤلاء ولا سلاح معهم – مع ذوى البأس والنجدة والسلاح والعدة ؟ » .

ونزل إلى ساحة القتال بما لديه من بأس ونجدة وسلاح وعدة . فماذا لقى ؟ لقد بصر به بعض العراة فرموه مدة طويلة حتى فنيت سهام القائد . . . وظن هو أن العراة فنيت حجارتهم ، فرماه أحدهم بحجر بقى فى المخلاة ، فحمل عليه القائد ، فما أخطأ عينه ، وثناه بحجر آخر فكاد يصرع القائد عن فرسه ، فكر راجعاً وهو يقول :

« يا أبا طاهر ، ليس هؤلاء بناس ، هؤلاء شياطين » .

هؤلاء الشياطين الذين اعتمدهم الأمين لمقاتلة جيش أخيه المزود بأقوى عدد القتال فى ذلك العصر وقفوا وقفة الكماة فى هذه الحرب التى شنتها الشعوبية الأعجمية على العصبية العربية .

لقد حاربوا أربعة عشر شهراً ، ثم وقعت المأساة بعد أن حوصرت بغداد حصارها الطويل ومنعت عنها الأرزاق وارتفع ثمن القوت عشرين مرة عما هو عليه فى المناطق التى كانت

فى حوزة المأمون . وقد ضاق الناس ببغداد . وكان أكثرهم ضيقاً وبرماً المموِّلون وأصحاب الثروات الذين فرضت عليهم الأموال والودائع لمتابعة الحرب ، فما كاد ذريح والهرش قائدا الأمين يباشران جمع الأموال حتى هرب أكثرهم إلى خارج بغداد .

إن الخريمى لا يعرض إلى هذه الأمور التى عرضت لها كتب التاريخ ، وإنما يؤرخ هذه الأحداث بنزعته الفنية ، حتى لكأنك تقرأ قصة من قصص التاريخ ، وهو إلى بكائه لا يشعرك بنزعته السياسية ، فلا تستطيع أن تعرف لونه الحزبى . أوكان يشايع الأمين أم يميل إلى المأمون؟ إن هذه النزعة لا تظهر إلا فى القسم الأخير من القصيدة أى حين تهدأ الثورة . . . فهو هنا أميل إلى المأمون ، وإن كان قد أخذ على الاثنين أن يجملا بغداد — هذه العروس الجميلة التى يصفها فى مطلع قصيدته بأنها جنة الدنيا — أتون هذه الفتنة اللاهبة .

ويخيل إلينا أن الخريمى نظم قصيدته هذه فى عدة فترات من حياته ، فى احتدام أوارها ، وفى نهايتها المحزنة التى انتهت بمصرع الأمين وارتقاء المأمون سدة الملك ، ونترك الآن هذه الاستطرادات لنتابع الشاعر فى وصفه هذه الفتنة فى أسواق بغداد :

بل هل رأيت السيوف مصلتة أشهرها فى الأسواق شاهرها
والخيل تستن فى أزقتهـــا بالترك مسنونة خناجرها
والنهب تعدو به الرجال وقد أبدت خلاخيلها حرائرها

ثم انظر إلى دقة الأداء وروعة البيان حين يصف الذعر الذى أصاب فتيات بغداد :

معصوصبات وسط الأزقة قد أبرزها للعيون ســاترها
كل رقود الضحى مخبــأة لم تبد فى أهلها محاجرها
بيضة خدر مكنونة برزت للناس منشورة غدائرها
تعثر فى ثوبهــا وتعجلها كبة خيل زيعت حوافرها
تسأل أين الطريق والهــة والنار من خلفها تبــادرها
لم تجتل الشمس حسن بهجتها حتى اجتلتها حرب تباشرها

وهكذا فإن النزعات الإنسانية تبدو صادقة عند هذا الشاعر الذى تثيره هذه الفواجع التى كان وقودها فتيات مخدرات ، وعذارى ومعصوصبات . وما أظن أن لوحة من لوحات أمهر الرسامين تبلغ فى الدقة من تصوير « الهلع » أو « الذعر » الذى صوره الخريمى قبل ألف عام ونيف بقوله :

تسأل أين الطريق والهــة والنار من خلفها تبــادرها

وليس بمستغرب أن تتوالى هذه الصور قوية فى شعر

الخريمي . فهو إلى نزعته الفنية الصادقة فى الوصف والتصوير قد عاش فى قلب هذه الفتنة أو على كثب منها يرقب أحداثها وتطوراتها ، ويشاهد جثثها وقتلاها ويعرف رجالاتها وموقدى نارها . فهو فى كل ساعة أمام منظر محزن يفتت القلب ويهز مكامن الشعور . ولا تعجب بعد هذا أن يحشد هذه الصور الإنسانية المتتابعة ، وأن تسمع هذا الصوت الحزين المنبعث من أعماق امرأة ثكلى تولول كالمجنونة :

يا هل رأيت الثكلى مولولة ... فى الطرق تسعى والجهد باهرها
فى إثر نعش عليه واحدها ... فى صدره طعنة يساورها
فرغاء تلقى النثار من يدها ... يهزها بالسنان شاجرها
تنظر فى وجهه وتهتف بالثكـ ... ـل وعز الدموع خامرها
غرغر بالنفس ثم أسلمهـا ... مطلولة لا يخاف ثائرها

وكما بكى الخريمي لهذه الثكلى الحزينة التى ارتفع صوتها بالولولة حين رأت مصرع ابنها وقد غرغر بالنفس — فقد بكى ذلك المغوار الذى قضى فى قلب المعركة دون أن تبكى عليه أم ، أو دون أن يبكيه أب أو أخ أو ولد أو ذو رحم أو صديق ، جثة ملقاة فى الطريق تنهشه الكلاب بأظافرها الحادة ، وقد خضبت بدمه :

وقد رأيت الفتيان فى عرصة المـ ... ـعرك معفورة منـاخرها

كل فتى مناع حقيقته   تشقى به فى الوغى مساعرها
باتت عليه الكلاب تنهشه   مخضوبة من دم أظافرها

وتزخر عاطفته فيرسم الصورة تلو الصورة بمقطوعات تشيع اللوعة الباكية فى كل كلمة من كلماتها ، وهو لا يقف عند هذا الوصف المثير لأدق نزعات الألم ، بل يرسم ما هو أبلغ وأقوى أثراً فى النفس . وكأنه فى وصفه بعض صور هذه الفتنة العمياء يصف الحقد الإنسانى بأبشع مظاهره ، بل يصف همجية القتال وبداوته الأولى حين يشير إلى الخيول التى تدوس بسنابكها جثث القتلى ، وهو لا يستعمل كلمة الجثث ولا القتلى بل يقول : « أكباد فتية » ، فهو يستعمل أصفى الكلمات وأرقها ليدل على شاعريته المرهفة التى لا تنحدر به إلى اللفظ المهلهل مهما تعددت صور القصيدة بل تتطاول مرتفعة ، وهنا تبدو براعته الفنية :

أما رأيت الخيول جائلة   بالقوم منكوبة دوائرها
تعثر بالأوجه الحسان من   القتلى وغلت دماً أشاعرها
يطأن أكباد فتية صرعت   يفلق هاماتهم حوافرها

ثم يعود إلى وصف المرأة البغدادية — تلك المرأة التى كانت تزاول شؤون الحياة كما كان يزاولها بعلها قبل ذهابه إلى الحرب :

أما رأيت النساء تحت المجا　　نيق تعادى شعثاً ضفائرها
يحملن قوتاً من الطحين على الـ　　أكتاف معصوبة معاجرها
وذات عيش ضنك ومقعسة　　تشدخها صخرة تعـــاورها
تسأل عن أهلها وقد سلبت　　وابتز عن رأسها غفائرها

كأنى بالخريمى فى قصيدته هذه يسجل هذه الأحداث فى يوميات ، فهو لم يترك ظاهرة دون أن يرسمها بريشته ، حتى تلك المنكودة التى نزلت السوق لتبيع ما لديها من متاع تقتات به ، فما هى إلا هنيهة حتى تنهال عليها الأحجار وتسلب وتبتز الغفائر عن رأسها فتصبح حائرة وهى لا تدرى ما تفعله ! . . .

ثم يقف الخريمى عند هذا الحد من وصف مظاهر هذه الفتنة وأطوارها ليلتفت إلى المأمون بعد دخوله بغداد فيخاطبه مخاطبة الند للند ، وينصحه أن يبعد عنه بطانة السوء ، وأن يسوس الأمور بعدل وحزم ، وأن يترفع عن هذا الذى انحدر إليه قواده وعماله ، ويطلب إليه أخيراً أن يؤدب رجاله الذين عاثوا فى المملكة وأفسدوا ، ويصارحه بما يشعر به ويحسه دون جمجمة أو خوف . فهو شاعر مستقل ، وهو ينقل إلى الخليفة ما يشعر به الجمهور ، ومن أول واجباته وقد أسدل الستار على هذه المأساة أن يوطد سلطانه على

العدل وأن يشيع الرحمة بين الجميع ، وأن يعيد لبغداد رونقها وجمالها ، وأن يكون مليكاً للكل وللمجموع لا لفئة دون أخرى فيخاطبه بقوله :

أصبحت فى أمة أوائلهـــا قد فارقت هديهـــا أواخرها
أدّبْ رجالا رأيت سيرتهم خالف حكم الكتاب سائرها
وامدد إلى الناس كف مرحمة تسد منهم بهـــا مفاقرها
أمكنك العدل إذ هممت به ووافقت مده مقـــادرها

إلى أن قال :

كم عندنا من نصيحة لك فى الـ له وقربى عزت زوافرها
دونك غراء كالوذيـــلة لا تفقـــد فى بلدة سوائرها
لا طمعاً قلتهـــا ولا بطراً لكل نفس نفس تؤامرها
جاءتك تحكى الأمور كما ينشر بز التجار ناشرها
حملتهـــا صاحباً أخا ثقـــة يظل عجباً بهـــا يحاضرها

وإننا لنلمس أنفة الشاعر وكرامته وترفعه عن الانحدار إلى هذه الأنانيات التى تركت بغداد ورجالاتها سنة وبعض سنة فى ثورة لاهبة وقتال شديد . نعم ، إننا لنلتمس هذا الإباء وهذا الشمم فى هذه الأبيات التى ختم بها قصيدته ، والتى أعلن فيها عن شخصيته القوية التى عرفت مكانتها دون أن تنحدر إلى هذا الصغار الذى اعتاد ترديده شعراء

المديح فى مثل هذه المواقف ، فأرسل قصيدته الكبرى مع أحد أصدقائه . ولعل هذا الذى أوغر عليه صدر السلطان أو صدر بطانته فضاع أكثر شعره ، ولم تحفظ لنا الأيام غير هذه القصيدة ومقطوعات فى أغراض شتى لو جمعت لما بلغت قصيدة كاملة . وما نظن أن شاعراً قوياً له مثل هذا النفس لا يكون له ديوان ضخم كدواوين من عاصره من شعراء الزلفى والمديح ، إلا أن تكون السياسة قد طمست آثاره الأدبية .

* * *

ماذا يثير فينا نحن المبصرين فقد بصر شاعر أو فنان أو إنسان ذى موهبة فكرية ؟ ! إننا نحس نحوه الإعجاب أولا ، ثم الشفقة والألم ، ولا سيما حين ننعم بما لا ينعم به من رؤية هذه العوالم التى تفيض بالسحر والفتون ، وسرعان ما يذوب هذا الألم حين نعلم أن القدر الذين سلب المكفوفين بريق عيونهم لم يتركهم يتخبطون فى دياجير الظلمة ، بل فتح لهم فى أعماق بصيرتهم منافذ أرتهم صور الكون بأشكال وألوان إن لم تكن بحقيقتها العارية فهى قريبة منها لا يسترها غير غلائل شفافة تكاد لا تفرق عن الواقع ، فالنهار المشرق ، والليل الساجى ، والشمس المشعة ، والبدر المنير ،

والنجم الساطع ، والطبيعة الباسمة ، والأشجار والأنهار والجبال والوديان ، وما إلى ذلك من نزوات حسية غير ملموسة كالحب والوجد والشوق والحنين والألم والأمل والحزن والفرح — كل هذا له عند الأدباء المكفوفين صوره التى لا تنأى عن حقيقتها .

وقد عرفت البشرية طائفة منهم تركوا فى تاريخ الفكر الإنسانى آثاراً خالدة ، وصدروا عن أخيلة رائعة وصور جميلة يقف المبصرون إزاءها حيارى ، فمن عهد هوميروس ، إلى عهد المعرى إلى عهد ملتون ، إلى طه حسين ، إلى كثيرين ممن عرفتهم الأمم فى مختلف العصور — منذ تلك الآماد البعيدة وتاريخ الفكر يحفظ للمكفوفين روائع الآيات فى الأدب والشعر والموسيقى . وفى تاريخ الأدب العربى طائفة كبيرة تركت ثروة ضخمة من الشعر والقصص فى مختلف نواحى الحياة ، وقد حفزت هذه الظاهرة الحية أكثر من أديب أن يعقدوا فصولا خاصة فى كتبهم عن ذكاء العميان ونوادرهم كابن قتيبة وابن الجوزى وابن نباتة وأبى بكر الخطيب وغيرهم وغيرهم . ورأينا أديباً من أدباء القرن السابع الهجرى — صلاح الدين أيبك الصفدى — يكتب كتاباً ضخماً عن نكت العميان فيؤرخ لهم وينقل نماذج

من أدبهم وشعرهم ونكاتهم ونوادرهم ، ويرينا نواحى طريفة من ذكائهم ودقة حسهم ، وهو كتاب على غاية من الغرابة والطرافة .

والشاعر المنسى الذى أنكرته السياسة فى عهد المأمون يختلف فى فقد بصره عن غيره من الشعراء ، فهو لم يولد أعمى كبشار ، ولم يكف بصره فى الرابعة من عمره كالمعرى وطه حسين ، بل درج فى الحياة كما درج المبصرون ، فقد رأى النور حتى مله وعب من رحيق الحياة حتى الثمالة وشهد عن كثب اضطراب الدنيا — دنيا بغداد — وتقلقل أركانها واضطراب نزوات أبنائها وشهوات سادتها ، ونعمت عيناه بشروق الشمس وغروبها ، وبجمال الطبيعة وجلالها ، حتى إذا انحدرت به الكهولة إلى وادى الشيخوخة العميق فجعه القدر ببصره فتألم أشد الألم ، ولكنه ما لبث أن تعزى عن فقد بصره بنور بصيرته وأنشد هذين البيتين :

فإن تك عينى خبا نورها ... فكم قبلها نور عين خبا
فلم يعم قلبى ولكنما ... أرى نور عينى لقلبى سرى

وهذا عزاء أكثر المكفوفين .

وقد ردد هذا المعنى كثيرون ، ومما قاله ابن عباس :

إن يأخذ الله من عينىّ نورهما ... ففى لسانى وسمعى منهما نور

قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل　　وفي فمي صارم كالسيف مأثور

* * *

وتتفق كتب الأدب على أن هذا الشاعر المنسيّ من فارس ، نزح إلى الجزيرة والشام أولا ، ثم إلى بغداد حيث اتخذها سكناً ووطناً . أى أنه فارسى المولد ، شامى النشأة ، بغدادى الموطن ؛ اتصل منذ هجر وطنه بخريم بن عامر المرى وآله ، فنسب إليه ، وقيل إنه اتصل بعثمان بن خريم ، وكان قائداً جليـــلا وسيداً شريفاً وهو الموصوف بالناعم ، وعرف فى البيئات الأدبية بكنيته الجديدة : أبو يعقوب الخريمى أكثر مما عرف باسمه : إسحق بن حسان بن قوهى — وهذا الشاعر الذى عاش أكثر أيامه فى الشام وبغداد ، والذى صهرته العربية ببوتقتها ورفعته إلى أعلى سماواتها ، ظل كثير التحنان إلى موطنه الأول ، كثير التفاخر بعرقه الأعجمى ، وكأن الأيام لم تستطع أن تجتث من أعماق صدره رسيس هواه الفارسى . وإلى هذا أشار بقوله :

إنى امرؤ من سراة الصغد ألبسنى　　عرق الأعاجم جلداً طيب الخبر

لقد تغنى الخريمى كثيراً ببغداد ، وأحبها أصدق حب ، وبكاها أيام محنتها بشعر حزين ، ومع كل ذلك لم ينس وطنه الأول — بلاد الصغد — فما بلاد الصغد هذه ؟ وأين

تقع من بلاد الله الواسعة الأرجاء ؟

لقد ذكرها الفردوسي عرضاً في قصص الشاهنامه ، ووصفها ياقوت في معجم البلدان وصفاً دقيقاً فإذا هي : « ناحية كثيرة المياه ، نضرة الأشجار ، متجاوبة الأطيار ، مونقة الرياض والأزهار ، ملتفة الأغصان ، خضرة الجنان ، تمتد مسيرة خمسة أيام ، لا تقع الشمس على كثير من أراضيها ، ولا تبين القرى من خلال أشجارها ، وفيها قرى كثيرة بين بخارى وسمرقند ، وقصبتها سمرقند ، وربما قيلت بالصاد » .

إذن فالشاعر من بلاد قد لونتها الطبيعة بأجمل ألوانها ، ومن قوم سراة طيبي الأعراق . والذي نرجحه أنه عاش فترة من حياته في هذه المواطن السحرية التي وصفها ياقوت ، حتى إذا جاوز عهد الطفولة نزل الجزيرة والشام ثم استقر في بلاد الرافدين ليأخذ العربية من ينابيعها ، فهل يلام الشاعر إذا رجع إلى الماضي يذكر قومه ويذكر أحلام طفولته وتلك المغاني السحرية من ربوع بلاده ؟

أما مولده فإن المصادر الأدبية والتاريخية لا تعرض إلى ذلك أصلا ، فهي تلمع إليه إلماعاً وتذكر مقطوعات من شعره وأحاديث مبتسرة منه ، فنعلم منها أنه عاصر الرشيد واتصل

بكاتب البرامكة محمد بن منصور بن زياد ، وشهد هذا الصراع الدامى بين الأخوين : الأمين والمأمون ، وعاشر أبا دلف وأبا المندام من قواد الرشيد ، وغيرهم من الأدباء والشعراء ورجال الفقه وكبار المجتهدين .

وإذا كانت فتنة بغداد قد وقعت سنة ١٩٧ هـ ، وكان الشاعر قد قال قصيدته فى أخريات أيامه . أى فى العقد السابع مثلا ، تكون ولادته فى حدود سنة ١٣٠ هـ ووفاته فى سنة ٢١٠ هـ على أقرب تقدير ، ونحن لا نجزم بهذا التحديد بل نفترضه افتراضاً . وبعد، فما أدرى لماذا يهتم الباحثون بهذا النواحى الدقيقة من حياة الكتاب والشعراء ، فحسبنا أن نعرف العصر الذى ولد فيه الشاعر والبيئة التى عاش فى صميمها ، وما علينا بعد ذلك أن تكون ولادته قبل سنة مما افترضناه أو بعد خمس سنوات أو عشر مثلا .

وقد يهم القارئ أن يعلم رأى أئمة الأدب فى هذا الشاعر المنسى . وإنا موردون نتفاً من أقوالهم لندل على قيمة شعره :

فالخريمى فى رأى المبرد جميل الشعر ، مقبول عند الكتاب ، له كلام قوى ومذهب مبسوط . وهو فى رأى أبى حاتم السجستانى أشعر المولدين ، ووصفه الأمير أبو نصر بن ماكولا بأنه من شعراء الدولة العباسية المجيدين ، وروى

الجاحظ بعض شعره مدللا بقيمته وبلاغته ، كما أورد ابن المعتز رأياً للمبرد فى كتابه طبقات الشعراء لا يختلف عن رأيه السابق فقال : كان الخريمى شاعراً مفلقاً مطبوعاً ، مقتدراً على الشعر ، وكان يمدح الخلفاء والوزراء والأشراف فيغطى الكثير ، وله فى الغزل ملح كثيرة ومحاسن جمة .

وقد كان مذهبه فى الأدب البساطة فى الأسلوب ، فقد أجاب على سؤال وجهه إليه أحد الأدباء : ما بال شعرك ما يسمعه أحد إلا استحسنه ؟ قال :

« إنى لا أجاذب الكلام إلا أن يساهلنى عفواً ، فإذا سمعه إنسان سهل عليه استحسانه » .

ووضوح الأسلوب وأدب الطبع من أقوى عناصر الأديب فى أداء فكرته ورسم خوالجه وشعوره .

وكما عرف أئمة الأدب للخريمى مكانته السامقة فى الشعر ، اعترف به كبار النقاد ، فرأينا الصولى فى كتابه أخبار أبى تمام يورد آراء النقاد فى تفضيل شعره على شعر أبى تمام فيقول :

ومن أعجب العجب وأفظع المنكر أن قوماً عابوا قوله — أى قول أبى تمام — :

كأن بنى نبهان يوم وفاته نجوم سماء خرّ من بينها البدر

وقالوا : كان يجب أن يقول كما قال الخريمى :

إذا قمر منهم تغور أو خبا   بدا قمر فى جانب الأفق يلمع

وهذه القصة تدل على أن الصولى انحاز إلى أبى تمام — وكان من المعجبين به — فى حين أن كثيراً من النقاد كانوا يفضلون الخريمى عليه وعلى غيره من الشعراء .

والواقع أن شعر الخريمى يفيض بالقوة والوضوح ، بل يفيض بهذه الألوان التى انثالت بين مقاطعه ، فهو كثير الصور ، قد طبعته العربية بسرها الأزلى . وكان لنشأته الأولى ونزوله فى غطفان أثر قوى فى تكوين عقليته ، فتزاوجت سليقته الآرية وعقليته السامية ، وكان منهما هذا الفيض الأخاذ الذى لمسناه فى شعره .

وفى أدبنا أكثر من شاعر واحد نشأوا نشأة فارسية ثم صبغتهم العربية بألوانها فكان لهم من هذا التزاوج العجيب هذه الدقة فى الوصف والنفاذ إلى أعماق الأشياء ، وكانت « الموضوعية » فى شعرهم أظهر من « الذاتية » التى يتميز بها أكثر شعراء العربية القدامى .

فنزعة الاستقراء والاختبـــار والمشاهدة وحب التوزيع والقدرة على الجمع بين المتناقضات ، وهذه العقلية الإيجابية التى تنظر إلى الحقائق كما هى ، حتى فى الهجو والمديح —

كل هذا بعض ما اتصف به شعر بشار ومهيار وابن الرومى ، وهذا ما يمتاز به الخريمى . وهو يختلف عن هؤلاء الشعراء – عدا ابن الرومى – بطول نفسه . خذ شعر بشار مثلا ، ففى شعره من متانة التركيب وحسن السبك ما لا تجده فى كثيرين من شعراء عصره الذين انتموا إلى البيئة التى احتوته ، غير أن طول نفسه فى قصائده قد يضيع عليه شيئاً من قوة الانسجام وحسن السبك وجمال النسق ، بخلاف الخريمى فإنك تجده مجـــوداً فى الفنين : فى قصائده الطويلة ومقطوعاته القصيرة . وقصيدته فى فتنة بغداد من قوة الانسجام وحسن السبك ووفرة الصور وقوة الواقعية ما يجعلها من أنفس ما كتب فى تصوير أعنف المعارك التى أثارتها المطامع الإنسانية . ومن الخسارة بمكان أن يضيع شعر هذا الشاعر وأن لا نعرف منه سوى بعض مقطوعات وقصيدته الكبرى التى هدتنا إلى تأريخ حياته بهذه الإلمامة الموجزة التى نرجو أن تكون توطئة لبحث أوسع وأشمل فى يوم ما . .

الأمير فخر الدين المعنى

رحلته إلى الغرب فى القرن السابع عشر

من الشخصيات الخطيرة فى تاريخ الأقطار السورية فى العهد العثمانى الأمير الدرزى المشهور فخر الدين المعنى الذى حاول إنشاء ملك يضم شتات الأقطار المتفرقة بين ولاة السلطان وشيوخ القبائل وأبناء البيوت الكبيرة ، وكان من أثر هذه المحاولة أن قضى فخر الدين حياته كلها فى كفاح طويل ضد الدولة العثمانية وضد منافسيه من بنى قومه ، ولم ينته هذا الكفاح إلا بانهزامه وقتله فى القسطنطينية بأمر السلطان فى سنة ١٦٣٥ .

يقول صاحب الأعلام : وفخر الدين هذا من آل معن ، المتصل نسبهم بربيعة بن نزار من أكبر أمراء هذه الأسرة ، وكان لها فى أيام الحروب الصليبية بسورية شأن . ولد فى الشوف بلبنان ، وثبتت له إمارة الشوف بعد أبيه سنة ١٠١١هـ ، وعظم أمره ، ووالاه الحرافشة حكام بعلبك فى عهده ، وناوأ حكومة الآستانة واستولى على بيروت ، فجردت عليه

الحكومة التركية قوة لا قبل له بها ، فركب البحر فارًّا إلى إيطاليا ، وكان له اتصال بآل مديسى « Medici » أمراء فلورنسه ، فنزل عندهم سنة ١٠٢١ هـ وأقام إلى سنة ١٠٢٦ هـ ، فعفت عنه الحكومة وأعادته إلى إمارته وأنعمت عليه بلقب « سلطان البر » ، وكان جده فخر الدين الأول قد أحرز هذا اللقب . وامتدت سلطته حتى حدود حلب فلبنان إلى حدود القدس غرباً ، إلا أن ولايات حلب ودمشق والقدس لم تكن لها علاقة به ، فطمع فى الاستيلاء عليها ، وشعرت الحكومة بفكرته هذه سنة ١٠٣٦ هـ ، فقبض عليه وحمل إلى الآستانة مقيداً مع ولدين له سنة ١٠٤٣ هـ ، فسجن مدة ثم عفا عنه السلطان واستبقاه فى الآستانة ، فكثرت الوشايات ضده ، فأمر السلطان بقتله وقتل ولديه ، فقتلوا . وكان شجاعاً باسلا ، طموح النفس عزيزهـــا ، كثير الفتك بأعدائه ، محبًّا للعمران . أبقى آثاراً تدل عليه .

* * *

إن فكرة الاستقلال الذى حاول الأمير فخر الدين أن يحققها فى هذه البقعة الواسعة الممتدة من حدود القدس إلى تخوم حلب هى التى جعلته يثور على الحكم العثمانى ويعمل على تحقيق هذا الاستقلال بمختلف الطرق والوسائل الممكنة .

ولما خابت آماله وفشل فى تحقيق أحلامه وأمنياته . ورأى إلى هذا أن حياته مهددة بالموت . غادر أرض الشرق إلى أوربا ليوثق صلاته مع إحدى الإمارات الإفرنجية . . . وكانت إمارة « توسكانا » هى التى اتجه إليها فكره . . . وهكذا كان فقد ركب البحر من ثغر صيدا فى غرة شعبان عام ١٠٢٢ هـ — وفى رواية عام ١٠٢١ هـ — هو وأسرته وحاشية كبيرة ، ومكث فى إيطاليا خمس سنوات عاد بعدها يتحدث عما رآه وما تركته تلك الربوع فى نفسه من انطباعات ؛ ويظهر أنه حرص أن تدون هذه الرحلة ، ولا نعلم الأسباب التى حدته أن يعتمد على أحد العلماء فى تدوينها ، أهى مشاغله السياسية أم قصر باعه فى الأدب ؟ أم هما معاً ؟ ! — وهذا هو الأرجح — فلو كانت له مشاركة فى الأدب لدون هذه الخواطر وهو فى إيطاليا ولما أفضى بها — بعد عودته — إلى عالم من علماء صفد ، هو الشيخ أحمد الخالدى أحد أدباء ذلك العصر ؛ فدونها كما سمعها بلغة مضطربة أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى . . . وهذه المذكرات مدفونة فى كتاب مخطوط أذاعها الأستاذ شفيق بك غربال عن نسخة مونخن .

ونحن بدورنا نعتمدها لوصف هذه الرحلة الغريبة وأثرها ،

فى نفس أمير شرقى : كيف عبر البحر ؟ ما هى المسافات التى قطعها بين الثغور السورية والثغور الإيطالية ؟ كيف فاجأه القرصان ؟ كيف استقبل ؟ وكيف احتفى به ؟ ماذا رأى فى مالطة وصقلية ونابولى وفلورانس ؟ كيف وصف هذه البلاد ؟ هذا ما نريد أن نعرض إليه لطرافة الموضوع .

غادر الأمير أرض الوطن وهو لا يدرى ما يخبئه له الغد ، كانت الهواجس تقرض نفسه قرضاً ، وقد تحمل هذا العناء فى سبيل فكرة غالية . . . وما كاد مركبه يبتعد عن الشواطئ السورية ويقترب من مالطة حتى فاجأه قرصان مالطيون . . . وقفوا المركب وأخذوا يسألونه عن وجهة سفره وما يحمله من مال وزاد وعتاد ، فأجابهم الأمير جواب الصناديد قائلا إنه لا يحمل غير الرصاص والبارود ، فكان وقع هذا الجواب عليهم كالصاعقة ، وكأنهم شعروا بقوته وجبروته وأنه ليس تلك اللقمة السائغة التى يمكن أن تزدرد بسهولة فتراجعوا وتركوه . وتابع سيره ، وكان البحر هادئاً والسماء صافية . . . وما هى إلا أيام حتى هبت الرياح وعصفت العواصف الشديدة فقذفت مركب الأمير فى اتجاه ومركب حاشيته فى اتجاه آخر . . . أما مركب الأمــير فما زال يغالب أنواء البحر وهى تغالبه حتى وصل بكثير

من العناء إلى ثغر ليفورنيا من بلاد الكراندوكا ، بعد أن مكث ثلاثة وخمسين يوماً فى عرض البحر ، وما كاد يقترب من الشاطئ حتى خف إليه قارب إيطالى يحمل موظفين يعرف بعضهم العربية والتركية أخذوا يسألون الأمير عن هذه الرحلة وما يحمله المركب من بضائع ؟ وهل المسافرون مسلمون ؟ فأجابهم الأمير بقصته وثورته على السلطان وأنه جاء ملتجئا إلى هذه البلاد إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا . ثم أفضى برغبته أن ينزل البر انتظاراً لمقدم المركبين اللذين يقلان حاشيته وبعض أفراد أسرته وهو لا يعلم أغرقوا فى البحر أم لا يزالون فى حرز الله وأمانه .

وهنا يحدثنا المؤرخ الصفدى عما قاساه الأمير من ملاحى المركب وكيف نفد زاده من طول الرحلة ، فاضطر أن يرجع إلى الملاحين الذين أمسكوا عنهم الزاد ثم قبلوا أن يخصوا كل فرد بخمس قطع من « البقسماط » مدة سبعة أيام ، وبنصف رطل من الأرز للجميع : وما زالوا فى هذه الرحلة حتى وصلوا إلى ليفرن . . .

ذهب الخفراء يعلمون حاكم البلد بمقدم هذا الأمير الشرقى والتجائه إلى إمارة « توسكانا » فسمح له بالنزول بعد أن أدخل منطقة الحجر الصحى خشية أن يكون

قدومه من بلدة موبوءة بالطاعون . . . وما خرج حتى ذهب إلى الحاكم فاستقبله هو ووجوه القوم أحسن استقبال ، ثم ساروا به إلى منزل الدوكا الذى كان متغيباً عن ليفورنا. وأراد الحاكم أن يعلم سر هذه الرحلة والأسباب الحافزة لمقدم هذا الأمير الشرقى الخطـــير فى مثل هذه الظروف ، وأن يتيقن أهو الأمير المعنى حقيقة أم غيره ؟ فلما وثق أنه هو الأمير فخر الدين رفع تقريراً إلى الدوكا الذى اختار وزيره الكبير « لورنسوا ». »ليستقبله باسمه ولينزله ضيفاً عليه،وكان الأمير فى قلق على حاشيته ؛ وما جاءه الخبر بوصول المركبين إلى الشاطئ حتى زال قلقه وسعى لدى الحاكم ليدخلوا البلد دون أن يحجزوا أربعين يوماً فى منطقة الحجر الصحى خارج المدينة ، فوافق الحاكم بعد أن وثق أن هذه المراكب قادمة من بلاد لا أثر للطاعون فيها . وبعد أن اطمأن الأمير على أسرته وحاشيته ذهب هو وبعض أتباعه إلى مدينة بيزا لمقابلة الدوكا ، وهنا يصف هذه المدينة بقوله :

« وهى مدينة عظيمة لها سور ونهر عظيم شاق المدينة ، ويطلع فيه على الشخاتير والقوارب إلى مدينة فرنسا — أى فلورانس ومن النهر المذكور خليج إلى ليفورنا . » ويقول : « وفى هذه المدينة العوجا — ويريد البرج المائل بمدينة بيزا —

الذى معلقين فيها النواقيس لأجل الساعات وإخطار الصلوات ؛ ويسمونها ماريا . وانعراج هذه المأذنة أمر عجيب فى صناعة البنايين . معمولة مربعة . وجميع الأربع حيطان رخام مدماك أبيض ومدماك رخام أسود . وإذا رميت حصوة على مساحة حيطها من محل ضرب الناقوس ونزلت إلى تحت توجد الحصوة طبت بعيد عن حيطها الذى قرب الأرض خمسة عشر قدماً فيكون انعواج هذه المأذنة خمسة عشر قدماً ، ولم خالل بها شىء من بنيانها أبداً . وقالوا إن فى مدينة البندقية مأذنة أخرى عوجا مثل المذكورة » .

انتهى كلام الصفدى على لسان الأمير .

* * *

لقد مر بمدينة بيزا مروراً سريعاً فأوحت إليه هذا الوصف ؛ وقد اشترط أن يدخل فلورانسا فى الليل فأجابوه إلى طلبه ؛ وما كاد يطأ أرض المدينة حتى خف لاستقباله أكابر القوم ووجوه البلد يتقدمهم عم الدوكا الذى أركب الأمير إلى جانبه فى عربة فخمة تجرها خيول مطهمة ، وسار الموكب يخترق شوارع المدينة إلى قصر الدوكا الذى استقبله مع زوجته وأركان إمارته أحسن استقبال ، ثم أخذ يلاطفه ويمنيه بأطايب الحياة . وقد شكر الأمير للدوكا حسن

ضيافته وشرح له غرضه من هذه الرحلة ، وهى لا تعدو الحصول على المعونة الحربية والتأييد السياسى لتنفيذ خططه فى بناء استقلال مملكته وسلخها عن الإمبراطورية العثمانية ، ولا نعلم بماذا أجابه الدوكا ، ولكن المتفق عليه لدى ثقاة المؤرخين أنه لم يتقدم من دول أوربا لتأييد الأمير فى سياسته إلا إمارة « توسكانا » التى لم يحل صغرها واضطراب الأحوال فيها دون طموح الأمراء لتحقيق ما قصرت الحروب الصليبية عن بلوغه ، ودون محاولتهم جعل « توسكانا » صاحبة المقام الأول فى التجارة والنفوذ فى الولايات السورية .

وإذ أضاف الدوكا الأمير وأنزله وأسرته أفخم قصور فلورانس ومهد له أطايب العيش ونعيم الحياة خصص له مهرة الطابخين ، وكان حريصاً أن يراعى دينه الإسلامى ؛ وكان الأمير قد طلب أن لا يأكل لحماً لم يذبح بيد مسلم ، فاستدعى له من ليفورنا الحاج محمد قواس باشى — وكان من جملة حاشيته — ليتولى ذبح الذبائح . . . وهكذا ظل الأمير فخر الدين فى ضيافة الدوكا ينتقل من قصر إلى قصر ومن متحف إلى حديقة ومن قرية إلى ضاحية وهو مفتون بجمال فلورنس وبهذه الطبيعة الخلابة ، بل بهذه المظاهر الغربية التى تختلف كل الاختلاف عن بلاد

الشرق. فماذا تركت هذه البلاد، وخاصة فلورانس، فى نفسه؟.

لقد فتنته هذه المدينة بطبيعتها الخلابة ، وبهذه الآثار التى تحتويها من كنائس وحدائق وقصور وآثار . . . وأى امرئ يقضى شطراً من حياته فى فلورانس ولا تعجبه هذه المدينة التى أوحت « الألعوبة الإلهية » إلى دانتى ، وأوحت أجمل آيات الأدب والفلسفة إلى أناتول فرانس ، وجمعت فى أطوائها الفن والشعر والأدب والفلسفة والسياسة والإقطاع والدين والوثنية وكل منازع الحياة البشرية فى ظل آل مديشى — وبديهى أن تعجب هـذه المدينة التاريخية الأمير فخر الدين الذى لم يكد يرجع إلى أرض الوطن حتى قص على رجالاته هذا الذى رآه وأعجب به .

ولكن من سوء حظ الأمير أنه لم يهيأ له أديب ملهم ينقل هذه الانطباعات بلغة سليمة وبيان صحيح — لذلك جاءت المذكرات ركيكة مضطربة ، بعيدة عن الانسجام . . يصف الشيخ الصفدى ، على لسان الأمير المعنى ، قصرها القديم وقصرها الحديث ، ويصف قناطرها ونهرها وهذه الجسور الجاثمة فى قلب المدينة ، ويشير إلى اتصال النهر بمدينة بيزا ، ثم يذكر أبواب فلورانس التسعة وسورها العظيم ، ولا ينسى أن يذكر حالتها الاقتصادية وما كانت

تجبيه الحكومة من الضرائب وتستوفيه من الرسوم : « وقالوا إن ضمان كل باب فى السنة سبعة آلاف شكوة — ضرب من النقود الإيطالية يعادل قرشاً وربع قرش — فكل ما يدخل المدينة يستوفى عشره للحاكم » ثم يشير إلى الرسوم الجمركية التى تستوفى عن كل ما يدخل هذه المقاطعة » ثم إلى الرسوم التى تفرض على الخمارات والدكاكين وكل المبيعات .

وأتيح للأمير فخر الدين — وهو فى ضيافة دوكة فلورانس — أن يشهد عيد المرافع الذى يقيمونه قبل صيامهم الكبير ، ونترك وصفها للشيخ أحمد الخالدى الصفدى الذى دون هذه المشاهدات على لسان الأمير . . . قال بلغته الركيكة المعقدة المضطربة :

« . . . وفى ذلك الوقت حكم عندهم عيد المرافع الذى يعملوه قبل صيامهم الكبير ، ويعملوا فى ذلك العيد لعب متنوعة ، من ذلك أنهم يعملوا وجوه مصبغة ويلبسوها ويبشيلوا ما فى باطن بيض الدجاج ويحطوا موضعه ماء الورد ويتضاربوا فيه مع الأكابر مع بعضهم بعضاً ، ومع النساء . وأما الأصاغر يحطوا موضع الماء ورد ماء ويتضاربوا فيه ويحطوا خودة على خشبة ويضربوا الخودة فى الرمح والفرس راكض والرمح بيمسكوه من أسفله ، والرمح كلما له بيدق أعلاه (؟)

والرمح ما يكون له جرن بل يكون في رأسه منزل رصاص حتى
يعلم موضع الضربة وعندهم الخيال الشاطر الذى يصيب عين
الخوده بياخذ الرهينة . وكذلك بيسابقوا بين الخيل فى زقاق
عريض فى وسط المدينة ، من طول المدينة إلى طولها ويقف
الناس يتفرجوا على الجانبين ، ومن الطيقان أيضاً ، ويركبوا
الخيل ويسابقوا بينهم إلى الأولاد الذى عمرهم من العشر سنين
إلى العشرين سنة ويركبوا الخيل من غير سرج فى اللجام
فقط وفى يد الولد القمشا الذى يضرب بها الخيل ويحطوا
بيرق فى رأس الزقاق والذى يسبق للبيرق يأخذ الرهينة لأن
أصحاب الخيل الذى يتسابقوا كل من يحط بشيء .
وكذلك يركبوا رجال على بغال شموص وبعد نبط البغال
إلى وراء وتعرضهم (؟) وقلت مطاوعتهم البغل الذى يسبق
يأخذ الرهينة على منوال الخيل . وكذلك يركبوا ناس على
خيل وبغال ودواب أصغر ما يكون ، وعلى ظهورهم جلود
نمورة والدباب وغيره على صفة يأجوج ومأجوج وكذلك
يتسابقوا بين الناس وهم فى الزلط فى الوزرة لا غير ، والذى
يسبق يأخذ الرهن مثل سباق الخيل . وكذلك يجيبوا الخنزير
الذكر البراوى يعملوا له جورة صغيرة من خشب ويلبسوا
جزل الحديد من رأسه إلى قدمه ويكون مع الرجال خنجر

وينزلوا الرجال إليه ويضل يتماعك الرجل هو والخنزير (؟) فإذا الرجل قتل الخنزير بيعطوه الخنزير . وكذلك يعملوا فى الليل لعب ويرقص الرجال والنسوان فى بيت كبير ويعملوا فى البيت شىء حتى يبان أنه بعيد وله حمرة مثل حمرة السما ، وناس معدية فى وسط الحمرة على نوع الملايكة وكذا يعملوا فى أرضية البيت لوالب خشبية ويغطوها بقماش على لون البحر ؟ واللوالب والخشب تبقا تدور من تحت حتى يبان أنه مثل موج البحر . ويمشوا فيه شختورة من تحت على عجل ومن فوق مثل الذى هى ماشية على البحر ويطالعوا منها مقدار خمسة عشر نفساً مرداً من أحسن الناس ويطلعوا يعملوا رقص ومحاكاة . وكذلك يعملوا صورة مدينة فرنسا وصورة مدينة أليفورنا بنهرها وجسورها. ويعملوا دواب بعجل معدية على الجسور حتى صورة أليفورنا فى قلاعها وخندقها وماء البحر دايرة على الخندق . ويعملوا أشياء كثيرة وما شاكل ذلك ولعب وأحوال عجيبة وغريبة . وكذلك يرقصوا النسوان والرجال كل من يرقص مع نده أمرات (امرأة) الدوكا مع الدوكا ، على مراتب أكابرهم فى البيوت لأن عادتهم ما تحتجب النسوان عن الرجال ، لا فى الرقص ولا فى الزقاقات حتى إذا غاب الرجل تقعد المرأة تبيع فى الدكان عوضه .

ثم يحدثنا بهذه اللغة التى لا تشوق الأديب وإن شاقت نصوصها المؤرخ — يحدثنا عن التحف التى رآها الأمير وأهمها صور سلاطين الإسلام ومشايخ العرب وكرة الأرض والسماوات السبع وحادثات الزمن وتطورات الكون : قديمه وحديثه . ثم صور اليهود الذين صلبوا المسيح بألبستهم القديمة . . . ثم انتقل إلى وصف آلات القتال من منجنيق الحصار إلى المدافع . . . ثم وقف وقفة المدهوش أمام الكنيسة القديمة المشيدة من المرمر فمأذنتها المبنية بالرخام الملون ، ولم ينس أن يذكر الأربعمائة والخمسين درجة التى يصعدون عليها إلى القبة لضرب الناقوس — هذا الدرج النحاسى المطلى بالذهب والذى تتسع كل درجة منه لصعود عشرة أشخاص . ثم يصف دار المسكوكات والقلعة ويشير إلى ثروة الدوكا التى يقدرها على رواية بعضهم بثمانين ألف غرش كل يوم ، أو عشرة كرات كل سنة — والكرة مائة ألف ذهباً .

ويذكر أن الحكم فى آل مديتشى قديم يرجع إلى سنة تسعمائة للهجرة ، وأن بلادهم معمورة ومضبوطة بالطاعة ويفسر « كران دوكا » بالأمير الكبير ، وإذ يتحدث عنه يقول : « وزعموا أن هذا الأمير أكبر من جميعهم ، وجميع سلاطين النصارى يكاتبوه ، وراهبين منه ، وحكمه متوارث ، لا ينقل

عنهم هذا الحكم ، ولا هذا الاسم ، ولا يودى خزنه لأحد السلاطين بل ميله بالمحبة إلى سلطان إسبانيا أكثر » .

وإذ طالت إقامة فخر الدين عند دوكة فلورانسه رأى الدوكا أن يخصص له داراً وراتباً سنويًّا يتصرف فيه كما يشاء ، وهكذا كان . فخصص له فى كل سنة ألفى غرش وعربة للنزهة وأخرى لقضاء مصالحه . فنقل أسرته وحاشيته من ليفورنا إلى فلورنس وأنزلهم فى هذه الدار التى يصفها وصفاً رائعاً : فهى قريبة من المدينة — أى من فلورانس — يحيط بها بستان من أجمل بساتين إيطاليا ، مزدهر بأفانين الرياض وأطايب الثمر وبدائع الزهور ومتنوع أصناف الطيور عدا أحواض المياه وهذه التماثيل الصامتة والتماثيل المتحركة . . .
« وفى هذا البستان — الكلام الآن للشيخ الصفدى— مصورين فيها آدمية — يريد الهياكل — وكل آدمى فى يده ملها من ساير الملاهى . وله موضع يسيبوا الماء إليه ولواب إذا وصل الماء إليه يبقى كل شخص يلعب فى الآلة التى بيده » . ولا ينس أن يدون طريقة تنظيف الشوارع العامة وطرح الزبالات خارج المدينة ، وأن يشير إلى أنواع الدجاج وندرة القرنبيط ندرة تجعل الفقراء لا يذوقونه . . . يذكر هذا ويذكر غلاء العجل ورخص الغنم وقلة الجاموس وفقدان الجمال بالمرة . . .

ثم يذكر ميلهم إلى الزراعة وحرصهم على تربية الإوز والبط والأرانب وكثرة أنواع الطواويس ، وغلاء الطاووس الأبيض الذى يعد أفخر أنواعها وتحريم صيد الحمام وغير ذلك مما لفت نظره . . . .

ولا شك أن الأمير فخر الدين برغم ما كان يحز فى نفسه من ألم الغربة وحنينه إلى أرض الوطن ، وهذا الاضطراب الذى كان يسود أفق بلاده وفشله فى تحقيق حلمه السياسى — برغم كل ذلك كان يرى من كرم آل مديتشى ومن هذه الألوان الغريبة فى نواحى الحياة ما ينسيه ألم غربته وفرقة وطنه . . .

* * *

بعد أن وصف الأمير فخر الدين مظاهر رحلته إلى إيطاليا ، وما رآه فى عرض البحر وفى فلورانس التى خلبت لبه ، أخذ يصف البلاد الإيطالية التى زارها والانطباعات التى تركت أثراً قوياً ، فى نفسه فوصف تافه الأشياء وخطيرها ، ولم يترك شاردة دون أن يحصيها ، وها هوذا يحدثنا عن البيمارستانات التى أعدت لإيواء الفقراء والمرضى والسهر على راحتهم وصحتهم دون أى مقابل ، وعن أديرة أشبه بملاجىء اللقطاء وأديرة خاصة ببنات الأسر الكبرى وأخرى للفقيرات

وغيرها للأولاد وللرجال ولأولئك الرهبان المتقشفين الذين يلبسون الصوف على أجسامهم والذين يحلقون وسط رؤوسهم ودوائرها مع احتفاظها بالأكاليل لوضع الشوك رمزاً للشوك الذى وضعوه على رأس السيد المسيح يوم صلب . . . أولئك الرهبان الذين لا يمسكون الفضة ولا الذهب ولا يركبون دابة ولا فرساً ويعيشون من الإعانات دون أن يكون لديرهم أى وقف . . . ثم يحدثنا عن المصارف فى ذلك العهد وعما يجبى باسم المقاطعة من أموال تصرف على عمرانها كتعبيد الدروب وإصلاح الجسور وتبليط الأزقة وتنوير الشوارع عدا ما يرصد من هذه الأموال لصرفه على الجنود وابتياع أدوات الحصار ومعدات الحرب . . .

ويتحدث عن المعاهدات السياسية ومعاملة البلاد والأسرى فى أثناء القتال وحرصهم على التمسك بعاداتهم القديمة . . . ثم ينتقل بأحاديثه إلى فن الطباعة ، وعن المطبوعات التى طبعت باللغة العربية قبل ثلاثمائه سنة فى إيطاليا فى حين كانت المطبعة لم تنتقل إلى الشرق . . . وبعد أن يشرح شكل الطباعة العجيب وما تعمله المطبعة من قذف كل ألف نسخة دفعة واحدة يقول: « إن كتاب قانون ابن سينا فى الطب وعظمه فى جلد واحد يباع عندهم بسبعة أو ثمانية قروش » .

وكما يسود الاضطراب لغة هذه المذكرات يسود حوادثها ، فبينا تراه يتكلم عن الطباعة إذا به ينتقل إلى زراعة الكتان فحراسة الطرقات فكيفية عمل الصابون فصيد الخنازير والحجل والبط والسمك على مختلف أنواعه . . . وهكذا . . . وهذا منطق عصور الانحطاط الذى يتميز بالاضطراب والتفكك سواء فى المعنى أم فى المبنى . . .

و بينا كان الأمير يقطع أيامه بهذه الرؤى والمناظر ، ينتقل من ناحية إلى ناحية لا يعلم ما يخبئه له القدر من مفاجآت ، إذا بسلطان إسبانيا يكلف حاكم مسينا أن يوجه دعوة إلى الأمير فخر الدين لزيارة مسينا . وقد توجهت الدعوة إلى الأمير بواسطة « الكراندوكا » الذى خيره بين الذهاب والبقاء ، فلم يشأ الأمير أن يخل بواجبات الضيافة وهو لاجئ سياسى ، فأحب بدوره أن يرى رأى الكراندوكا الذى أطلق له الحرية ، وزاد بأن سفنه مسافرة إلى مسينا فإذا كان له ثمة رغبة فالأمر له . . . وكأنه أحب أن يخفف عبء ضيافته عن إمارة توسكانا فركب البحر هو وأسرته وحاشيته على إحدى سفن الكراندوكا إلى مسينا . وما وصلوا إليها حتى استقبلوا باسم سلطان إسبانيا أحسن استقبال ، وكأنما النزعة العربية قد استيقظت فى نفس الأمير الإسبانى عندما

رأى هذا الأمير العربي فبالغ فى إكرامه وإنزاله أحسن منزلة ولكن كل هذه الحفاوة لم تكن لتنسيه بلاده فكان كثير الشوق إلى أخبارها . . . وما لبث مدة حتى قرر أن يركب البحر مع أول مركب يتجه إلى الشرق ، وهكذا كان فقد أبلغ رغبته إلى حاكم مسينا فمهد له السبيل بعد أن أبقى أسرته وحاشيته فى ضيافة الحاكم ، وسافر مع قرصان الطليان ووجهته مالطة ، ومنها إلى السواحل السورية .

وما كاد الركب يرسو فى ثغر مالطة حتى دعاه حاكمها الكراند مايسترو ، وهو رئيس فرسان القديس يوحنا أصحاب مالطة ، فقبل دعوته . وهنا يقول إن حكام مالطة وضباطها وجنودها يظلون بغير زواج كالرهبان ، وعدد الأهالى اثنا عشر ألفاً ، وهم أشبه بانكشارية الشام . وأترك وصف الجزيرة للخالدى الصفدى فهو صورة صادقة لتفكير مؤرخى العرب فى القرن السابع عشر :

« . . . وقالوا إن فى جزيرة مالطة اثنتان وستين قرية ومدينتين لا غير لأن دوز الجزيرة ستين ميل ولما طلع حضرة الأمير ضربوا له جميع المدافع من القلعة والأصوار ولما وصل إلى عند كران ما يسطرو لاقاه ورحب به وبقى عنده ثلاث أيام فى الإعزاز والإكرام ونزهوه وفرجوه على خندق المدينة إلى عملوه

جديد وهو عظيم فى العمق والوسع . وجميع أزقاق المدينة مفروشة بالبلاط . وطلبوا من الأمير أن يعملوا له ضيافة فى بستان كران مايسطرو لأنه من عجائب الدنيا فامتنع الأمير عن الرواح إلى البستان لئلا يصير لهم كلفة زايدة ولا طولة . . . وفيما بعد عاد تندم الذى ما راح وتفرج عليه وودعهم واستكثر خيرهم ونزل للغليون — أى للمركب — فأرسلوا له على نوع الزوادة من الغنم والدجاج والملبسات والمحليات ومن البهارات والخبز والخضارات شىء زايد وأخذوا الخبز من مالطة لابن باشة مسينا — أى حاكمها — الذى يسمى الدوكا توجه إلى مدينة بليرموا قاعدة جزيرة صقلية وإن جماعة الأمير وأعياله توجهوا إلى بليرموا كذلك . . . » .

فنفهم من هذا النص أن أسرة الأمير التى تركها فى مسينا قد رافقت الحاكم إلى بليرموا — قاعدة صقلية — حيث التقت بالأمير . . . ويحدثنا أن أمواج البحر ظلت تتقاذفه سبعة أشهر كاملة حتى وصل إلى صقلية حيث أخذ ينتقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى الكرك أى الموضع المعروف باسم Palamadegreeci فى جنوب غربى بلرم ، وفى هذا المكان رأى الأمير أناساً يختلفون بأزيائهم عن سكان جزيرة صقلية . . . ولدى محادثتهم فهم أنهم قد هاجروا إلى هذه الجزيرة من

جور العثمانيين . وهنا يقول على لسانهم : « نحن كنا ساكنين تحت يد المسلمين من بلاد جزر آل عثمان ومن كثرة الظلم والقهر رحلنا فى مركب وجينا طلبنا من حكام بليرموا مزرعة فأعطونا هذا الموضع وهو خالى خراب فبقين نحن وأهلنا وعيالنا وأولادنا نحطب ونبيع على المدينة حتى صار معنا صارمية — أى رأس مال — واشترينا فدان وأبدرنا إلى الزرع ونصب المزرعة . فلما كثرنا وأملينا المزرعة وأرضها فى الفلاحة والملك طلبنا غيرها فأعطونا مزرعة ثانية ثتنية فعمرناها وعمرنا جميع أرضها . فلما تزايد نشوها طلبنا مزرعة ثالثة كذلك فأعطونا إياها وعمرناها وهذه الثلاث مزارع كانوا خراب . . . فقلنا كم أنتم اليوم نفس فقالوا نحن اليوم نجىء بثمانمائة رجل وأعيال وأولاد . . فقال لهم إيش قدرة الغنى منكم ؟ فقالوا من الثلاث آلاف إلى الثلاثين ألف قرش . . . فقال لهم كم سنة لكم فى هذه البلاد فقالوا أزيد من سبعين . فقال لهم كم أنتم رجال يوم جيتم فقالوا جينا سبعين عائلة » .

ويصف باليرموا بأنها « مدينة عظيمة ، لها صور وأربع أبواب ، كل باب يقابل باب » وبعد أن يصف أبوابها وأزقتها وكنيستها ووفرة مياهها وسكانها وبساتينها وفواكهها

الكثيرة وغلتها ورخص مواردها ، يقول إن فى بايرموا عائلات مسلمة وأناس من أسر بنى حفص الأندلسيين الذين هجروا إسبانيا من الجور الذى نزل بهم . ويذكر الصفدى الجامع الإسلامى الواقع خارج الصور فى بليرموا الذى شاده الفاطميون حين كانت جزيرة صقلية تحت سلطانهم . . . ويصف قبابه المرتفعة أجمل وصف .

وبعد أن ظل الأمير مدة فى جزيرة صقلية توجه إلى نابولى التى وصف بيوتها بأنها مغطاة بالحجر من خمس طوابق إلى سبعة وأن تعداد سكانها ستمائة ألف نفس ، وفيها قلعة كبيرة مطلة على البحر وقلعة ثانية أصغر منها فثالثة قائمة على صخر أصم عال يرجع بناؤها كما رآه فخر الدين لسنة ١٥٥٥ ، أى لعهد شارل الخامس . . . ويزيد بأن بلاد نابل منسقة ، عظيمة فى الكبر وفى كثرة الناس . . . وهنا يقول : « وذكروا أن مدينة سلطان فرنسا باريز قدرها مرتين » وأن فى نابل سبعين دوكا . . . وقد مدت إليها المياه وفيها بساتين كثيرة . . . وبعد أن يتحدث عن حوادث نابل الداخلية فى ذلكم العصر ونفوذه المكايلونشى وثروته ووصوله إلى أسمى مراتب إمارة نابولى بعد أن كان جنديًّا بسيطاً ، وعن النظام القاضى بأن تكفل الحكومة الخبز اللازم للناس وغير ذلك من الحوادث

قال إن بعض وجوه البلد تقدموا إلى الأمير فخر الدين يسألونه بلسان الدوكا الإسبانى عن ميل السوريين إلى إسبانيا وعما إذا كانوا يرغبون فى الانضمام اليهم فكان جواب الأمير جواب الرجل الأبى الحر الذى يحفظ كرامة وطنه ، وكرامة نفسه . وهنا ننقل هذا النص التاريخى بحروفه لأهميته : « كلموه وقالوا إن رحنا إلى بلادكم قدر إيش يجوا ناس من أهلكم . فقال لهم الأمير : هذا أمر دين ما أقدر أكفل أحد . . . لا أخى ولا ولدى . ولا أهل بلادى : بل أنا عندكم وقدامكم . فقالوا إذا ما جاءوا معنا ما يبيعونا ذخيرة . . . فقال لهم : أنتم تعرفوا قوة دين الإسلام وقوة آل عثمان . . . بل الذى مراده يقهر القوتين ما يتكل على مشترى ذخيرة من الناس فأحكوا بلسان بعضهم بعضاً بلسانهم . وهزوا رؤوسهم من هذا الجواب وقالوا له كم كنت تجمع عسكر فى بلادك فقال لهم يوم كان المنصب علينا والحكم والحكومة فى أيدينا جمعنا أزيد من عشرة آلاف رجل من غير الذى يتأخر فى البلاد ... وأما اليوم مالى حكم إلا على نفسى ، فتعجبوا من جوابه لذلك . . . وتركوا الكلام معه ومن ذلك اليوم وهذه الجوابات ما عادوا بالهم منه مثل عادتهم ولا عادوا أعطوا العلاقة المعتادة وبقى يبيع صيغة وحوايج ويخرج على نفسه والذى معه وبقى

على هذا الحال مدة فى نابل » . وقد جاءته وهو فى هذه الحالة من الاضطراب دعوة من ملك فرنسا بالتوجه إليه ليشفع له عند السلطان العثمانى للصداقة الوثيقة بينهما . فبعث يستأذن الكراندوكا . فلم يسمح له . وبذلك اعتذر له بكتاب لطيف . . . وهنا يدون بمرارة محاولة سلطان إسبانيا إكراهه على ترك الإسلام والدخول فى النصرانية فيقول : « وقال له هذا — الكلام للشيخ ناصر أحد أسرى العرب فى نابل — جاء من سلطان إسبانيا مضمونه إن كان الأمير فخر الدين يدخل فى ديننا نعطيه حكم على قدر ما كان عاطيه سلطان المسلمين فى بلاده وأزيد ، وإن كان ما يرضى بذلك إن أراد يقعد وإن أراد يروح بلاده » . . . وضاق الأمير بهذه المحاولات وهو الذى هاجر إلى هذه البلاد النائية فى سبيل حريته وسيادة بلاده ، أفيرضى أن تمس كرامته ويتطاول الأجنبى إلى أقدس عقائده ؟ ! . . . كلا . وكأن الأقدار كانت تهيء له كل الوسائل لتعيده إلى بلاده فقد وصلته رسالة من أمه العجوز تستعجله بالعودة إلى أرض الوطن . . . وبعد أن فاتح الكراندوكا بعزمه على العودة والسماح له بذلك أخبر أسرته التى طارت تلك الليلة فرحاً حتى إنها لم تستطع أن تنام ، لقد اعتزموا السفر ثانى يوم : وها هى ذى الحقائب

والمعدات تنزل إلى المركب ، ولكن الكراندوكا قد ساورته الظنون بسفرهم المفاجئ فحبس عنهم « الباسبورت » وظلوا فى المركب ثمانية أيام دون أن يسمح لهم بمغادرة الثغر . وقد ضاق صدر الأمير من هذه المعاملة القاسية ، ورأى أن يستطلع الخبر من الكراندوكا الذى أوجس خيفة من أن ينقل إلى السلطان العثمانى حالة هذه الإمارة الإسبانية ، وهنا جرى بينهما الحديث الآتى :

« . . . وقال له إلى أين تروح ؟ فقال إلى صيدا . . . فقال له مَنْ حاكم صيدا ؟ . فقال له ولدى فقال : إيش عمره ؟ فقال : عشرين سنة . فقال له ما تفزع من ولدك وأهلك وأهل بلادك . . . فقال أنا ما فارقتهم على بغض ولا على عداوة . . . فقال إذا ما فزعت منهم ما تفزع من السلطان . فقال أنا إيش أريد من السلطان . . . أنا راضى باللقمة وشربة الماء وأنظر ولدى وأهلى . . . وإما رضوا منى بذلك وإلا الجبال واسعة وإن كان ما تساعنا الجبال وإلا الدنيا واسعة ونكون نفذنا كلام والدتنا . . . فقال له الدوكا تروح إلى إسلامبول . فقال له لو كنت أروح إلى إسلامبول ما جيت إلى عندكم كأنهم ظنوا أن الأمير يروح إلى إسلامبول ويحكى عن بلادهم وأحوالهم... فلما قال لهم هذا الجواب طاب خاطرهم. »

وانتهى هذا الحديث بأن وعده أن يبعث له « الباسبورت » مع الترجمان كارلو الذى لم يكد يسلم الأمير جواز السفر حتى أخرج كيس دراهمه ووهبه له كما نزعت الأميرة سوارها الذهبى وسلمته إلى الترجمان . وهكذا تحرك الموكب فى أواسط شهر رمضان سنة تسع وعشرين وألف . وما زالوا يصارعون الأمواج بين ليل دامس ونهار مشرق إلى أن أشرفوا على عكا حيث استقبل أعظم استقبال ، وكانت عودته قد دوت فى أرجاء البلاد وبعد أن مكث فى لبنان مدة سافر إلى الآستانة فلقى هناك مصرعه بفعل الوشايات . وكانت حادثة سفره إلى إيطاليا من الحوادث التاريخية الكبرى .

من ألوان الحكم فى عهد الانهيار العباسى

الخليفة المقتدر ووزراؤه

هل عرف العرب نظام الحكم بمعناه الحديث ؟ . . .

إن هذا الموضوع شائك ذو شعبات طويلة يحتاج بحثه إلى دراسة مستقلة . ولست أريد أن أتناول هذه الناحية بالدرس والبحث . بل أريد وأنا أتحدث عن ألوان الحكم فى عهد الانهيار العباسى أن أشير إشارة سريعة إلى شكل الحكم عند العرب .

فالواقع أن العرب قبل الإسلام لم يعرفوا نظام الحكم بمعناه الحديث ، « فلم يكن عندهم قضاء يحتكمون إليه ، أو شرطة تقر الأمن والنظام ، وجيش يدرأ عنهم الأخطار الخارجية ، كذلك لم يكلفوا دفع الضرائب لعدم وجود حكومة تقبض على زمام السلطة التنفيذية . وتضرب على أيدى المعتدى وتوقع عليه العقاب المتناسب مع جرمه ، إنما كان للشخص المعتدى عليه أن يثأر لنفسه بنفسه ، وعلى قبيلته أن تشد أزره » ، وهذا هو حكم القبيلة التى لم يكن لها

« قانون تسير وفق نصوصه بل كانت تحكم بما جرى عليه العرف . وقد قام العرف عندهم مقام القانون » . فلما جاء الإسلام « وضع الرسول نواة النظام الإدارى » كما وضع « نظام الدولة الإسلامية » عقب هجرته إلى المدينة . وسار الخلفاء الراشدون على نهجه وزادوا ما اقتبسوه من الأنظمة السائدة فى ذلك العصر — أنظمة الفرس والبيزنطيين ، فقد وجد العرب أن هذه الأمم التى بنوا حضارتهم على أنقاضها كانت ذات تاريخ مجيد عريق . من حيث الحضارة والمدنية والنظم السياسية وغيرها . . . كما وجدوا فى تلك البلاد التى فتحوها نظاماً إدارياً ثابتاً لم يكن بد من قبوله وإبقائه على ما كان عليه من قبل . ثم إحداث ما عسى أن يتطلبه الإصلاح من التغيير الذى لا غنى للعرب عنه مما يتفق وعقائدهم الدينية ويتمشى مع مصلحة الشعوب التى دانت للمسلمين ، و «كان النظام الإدارى فى صدر الإسلام وفى عهد بنى أمية نظاماً بسيطاً ، فلم يتبع نظام توزيع الأعمال على الإدارات المختلفة ، واختصاص كل إدارة بأعمال معينة كما فعل العباسيون الذين نظموا شؤون الدولة تنظيما حسناً يعادل خير الأنظمة » . ولم يكن فى العهد العباسى وزارات مختلفة بل « جرت عادة الخلفاء العباسيين من أول عهد

خلافتهم أن يسندوا أمرهم إلى وزير واحد يتولى شؤون الدولة فى جميع مرافقها من مالية وإدارية وداخلية وخارجية ، وهو الذى ينيب عنه من شاء فى دوائر الاختصاص . أما النظام المعروف عندنا اليوم من توزيع أمور الدولة بين وزارات مختلفة فلم يكن يؤخذ به فى العهد العباسى وإنما ساروا عليه فى الأندلس » .

هذه توطئة لا بد منها ، قبل الكلام عن ألوان الحكم فى عهد الانهيار العباسى – فى عهد الخليفة المقتدر ووزرائه ، وقد اخترت هذا العهد لأنه يمثل صورة مؤلمة من ألوان التفسخ والانهيار ، ولأن الحوادث وحياة الوزراء هى الصور الناطقة عن شكل الحكم فى ذلك العهد الذى طوى معه سيادة عربية فانبثقت إمارات وقامت دويلات وثارت خصومات ، وكان للنفوذ الأجنبى – وأريد نفوذ الفرس والترك وقد سيطروا على الشؤون الداخلية سيطرة مريعة – أثره فى الانهيار الخارجى مما تذكره كتب التاريخ بإسهاب .

* * *

ومن الوزراء العباسيين الذين لعبوا دوراً هاماً فى خلافة المقتدر ، الوزير ابن الفرات – الرجل الفذ الذى مرت حياته بسلسلة طويلة من هذه التيارات التى تتقاذف الرجال

العظام . فبينا تراهم فى الأوج إذا بهم ينحدرون إلى الحضيض ، وبينا تراهم فى فيض من النعيم إذا هم فى أتون من الجحيم . . .

وقبل أن نبحث حياته، وعوامل صعوده وهبوطه . لا بد من كلمة عن الأحداث التى رافقت خلافة المقتدر — هذا الخليفة الصبى الذى تقاذفت نشأته وحياته الأعاصير . . .

ففى أوائل القرن الرابع الهجرى هزت عاصمة العباسيين فترات من الحيرة والارتباك فيمن يرتقى سدة الملك بعد وفاة الخليفة المكتفى بن المعتضد بالله ، وقد انشطر الناس فى بغداد شطرين ، أو كما يبدو لنا من مختلف الروايات أن حزبين قويين كانا يتنافسان الحكم : الحزب الحكومى الذى يستند إلى نفوذ رجال القصر وأكثرهم من الوصوليين الانتهازيين من فرس وترك ، وآخر من صميم الشعب يضم طائفة من القواد العظام ورجال البيوتات العريقة والشعراء والأدباء والشباب المتحمس القوى — وكانوا جميعهم غير راضين عن سياسة الدولة للتصرفات الشاذة التى تقوم على الأنانية والمزاج والمنفعة الخاصة دون اعتبارات المصلحة العامة .

كان حزب الشعب — إذا صح افتراضنا أن الحياة السياسة قد عرفت هذا التقسيم الحزبى الذى نعرفه اليوم —

يفكر فى رجل من غير أبناء المعتضد يبايعه الخلافة ، وحجته فى ذلك أن أمور الدولة فى عهد المكتفى قد انتكست ، وأن التصدع فى كيان الملك قد أخذ يزداد ، وأن المصلحة تقضى أن يسند الملك إلى رجل قوى الشخصية ، شديد المراس ، تتوفر فيه كل الخصائص النبيلة ليقضى على هذه الميوعة التى انتهت إليها الخلافة وإن تخطى هذه الاعتبارات الوهمية التى تقوم على تقاليد الوراثة ؛ وإذا كان من الصعوبة بمكان إهمال هذه التقاليد فقد قر رأيهم على أن يرشحوا من يتصل نسبه بالأروومة العباسية ، ووقع اختيارهم على ابن المعتز . . . ولكن بعض الغلاة الذين لا ينتسبون إلى القصر أو إلى حزب الشعب تساءلوا همساً : أيستطيع هذا الذى رشحوه أن يعيد هيبة الملك وسلطان الخلافة ؟ . . . وكأنهم كانوا يقولون : أيسند الملك ، وهو مضطرب تعصف به الأهواء ، إلى شاعر يعيش فى غير عالمنا الأرضى ، يعيش بين الكواكب والنجوم ، وفى ظلال الزنابق والورود والخزام . . . أم يسند إلى صبى — وأرادوا ابن المعتضد — وعمره لا يعدو عمر المنى والأحلام !

وتسرب هذا اللغط إلى العباس بن الحسن — الوزير الأول فى المملكة والذى كان يرغب ، فى هذه الفترة العصيبة

من وزارته ، أن يوائم بين الآراء المتباينة ، وأن يكون فوق الأحزاب وصديق الجميع لئلا تزعزع أعاصير الانقلاب مركزه الوطيد فى دست الحكم ، ولا سيما قد كان كل فريق يتهمه بمناصرة الفريق الآخر ، حتى رؤساء دواوينه اتهموه هذه التهمة وانشطروا فى هذه القضية شطرين : بعضهم يريد أن تظل الخلافة فى بيت المعتضد ، وبعضهم يميل إلى الشاعر ابن المعتز . . .

وعقد العباس بن الحسن مجلساً وزارياً استطلع فيه رأى وزرائه فى هذه الأزمة الكبرى ، وفيمن يحسن مبايعته حين يلفظ المكتفى أنفاسه الأخيرة ، فجمجم هذا وسكت ذاك ، وأخذ الجميع يطرقون لا يفصحون عن رأيهم ، حتى إذا أصر الوزير الأول ، وكان لا يزال يحتفظ بحيدته دون أن يميل إلى هذا أو إلى ذاك ، انبرى داود بن الجراح يصرخ بصوت عال — وكان هو الذى يغذى المعارضة من وراء ستار — :

« إن ابن المعتز هو أحق بالخلافة من الكثيرين لعدة اعتبارات : ١ — أنه فى الخمسين من عمره ، أى فى إبان نضوجه واكتماله ٢ — أنه ابن المتوكل ، أى من صميم البيت العباسى ٣ — أنه ذو مكانة مرموقة فى بغداد

٤ ـ أنه يمتاز على الكثيرين بفضله وعلمه وذكائه ورجاحة عقله . . .

وابن الجراح هذا كان يرأس المعارضة ، وكان قوى الشخصية ، أنفق ثروته فى شؤون الخير ، وكان من العلماء ومن أعرف الناس بالشعر ، حتى قال الصولى عنه إنه لا يعرف أنه وزر لبنى العباس وزير يشبهه بعفته وزهده ، لذلك كان لكلمته قوتها فى مجلس الوزراء . . .

ثم جاء دور ابن الفرات ليدلى برأيه فاعتذر وقال :

إن مهمتى أن أشاور فى شؤون العمال لا فى شؤون الخلفاء ، ولكن رئيسه لم يقبل منه هذا ، وإذ أحرجه جابهه بهذه الصراحة التى امتاز بها فقال :

إن هذا الوزير قد استقر على أحد بعينه فليفعل ! . . .

فأدرك رئيسه ما يعنى ، فهو متهم عنده بميله إلى ابن المعتز ، وقال له لا أقنع بما ألمعت إليه ، ولا بد من أن تمنحنى النصيحة . . .

قال ابن الفرات : أتريدها خالصة لوجه الله . . . هاك نصيحتى :

« فليتق الله الوزير ، ولا ينصب إلا من عرفه ، واطلع على جميع أحواله ، ولا ينصبه بخيلا فيضيق على الناس ،

ويقطع أرزاقهم ، ولا طماعاً فيشره فى أموالهم فيصادرهم ، ويأخذ أموالهم وأملاكهم ، ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ، ويرجو الثواب فيما يفعله ، ولا يولى من عرف نعمة هذا ، وبستان هذا ، وضيعة هذا ، ومن قد لقى الناس ولقوه ، وعاملهم وعاملوه ، ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس ، وعرف وجوه دخلهم وخرجهم . . . »

فقال الوزير صدقت ونصحت : فبمن تشير ؟

قال : أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد . . .

قال : ويحك ! هو صبى . . .

قال ابن الفرات : ألا إنه ابن المعتضد ، ولمَ نأتى برجل كامل يباشر الأمور بنفسه ، غير محتاج إلينا ؟ ! . . .

لقد سرت هذه الجملة الأخيرة فى نفس الوزير الأول سريان الكهربا ، فإسناد الملك إلى صبى فى العقد الأول من عمره معناه انتقال السلطة إليه مباشرة يصرف شؤون الملك كما يريد . . . وقد تكون هذه الجملة هى التى حفزت الوزير الأول أن يخرج عن صمته وحيدته ، وأن يعتبر مشورة ابن الفرات كأنها آية منزلة .

على أن ابن العباس لم يواجه الناس برأى ابن الفرات ، بل تركه سرًّا من الأسرار ، وظهر للشعب بوصية الخليفة .

ووصيته حين اشتد عليه المرض أن يُقلد الخلافة أخوه جعفر . وبذلك انحاز بصورة غير مباشرة إلى حزب القصر ، وبويع جعفر بالخلافة . وأعطى لقب المقتدر ، وهو صبي فى الثالثة عشرة من عمره ، فكان لهذا الخبر وقعه السيء فى جميع الأوساط العراقية . « لأن سيرة المكتفى لم تكن هذه السيرة العطرة أيام حكمه الذى دام ست سنوات ، فقد انتكست البلاد فى عهده ، كما أن سيرة أبيه المعتضد لم تكن عطرة أيضاً ، وبرغم محاولته أن يعيد للبيت العباسى جلاله وهيبته ، وبرغم الإصلاحات العمرانية التى باشرها فى بغداد اتصف حكمه بالقوة والجبروت ، وأرهق الشعب بالمظالم وألوان الضرائب . . . لذلك عارض حزب الشعب فى ارتقاء هذا الصبى دست الخلافة ؛ وسرعان ما اجتمع بالوزير الأول القواد والقضاة والكتاب ومن يمثلون مختلف الهيئات وأعلنوا له استنكار الشعب لهذا التدبير الآفن وسخطه على هذه الخطة المعوجة ولم يكتموا رأيهم فى إعلان بيعة ابن المعتز وخلع المقتدر .

بينما كان الشعب فى ثورته الهائجة وغليانه الشديد ، كان الخليفة الصبى لا يعلم شيئاً عما يحاك حوله ، كان منصرفاً إلى لعبه . يقول المؤرخون : إنه ، فى هذه البرهة ، كان

بالحلبة ، يلعب بالصوبجان على عادة الملوك ، لا يدرى شيئاً مما كان يروع الشعب ، لأن سنه لم تكن لتساعده على فهم دقائق الأمور .

أما ابن المعتز الذى اتفق المؤرخون والكتاب على أنه من أشعر بنى العباس ومن خيارهم فلم يكن هو أيضاً يميل إلى أعباء الخلافة ، ولا أن يزج نفسه فى هذا المأزق الشائك فقد كان شاعراً بكل ما تحمله هذه الكلمة من أجنحة وأحلام ، وكان رقيق القلب ، إنسانى النزعة ، فخشى أن يؤدى هذا النزاع إلى سفك الدماء . . . علام يزج بنفسه فى مصطرع الأعاصير وله من مملكة الشعر ، ومن خمائل الورد والزهر ، ومن كؤوس الخمر ما يغنيه عن التردى فى مهالك الشر؟!. . . ولكن غير واحد ممن يمثلون طبقات الشعب أصدق تمثيل — ولعل فى طليعتهم ابن الجراح — رادوه أن يخرج عن تردده ، وشجعوه على المضى بقبول الخلافة . . . وإذ رأى هذا الاندفاع نحوه من أكثرية الشعب ومن قادته ، ورأى القلوب تحيطه بالتجلة والحب قبل — وبريق الخلافة يستهوى وهو ابن خليفة — أن يضطلع بأعباء الملك . . .

فى هذه اللحظات العصيبة ، وقف الوزير الأول موقف

الحائر المضطرب الذى لا يكاد يرى الرأى حتى ينقضه .
لقد نزل إزاء هذا التيار الجارف ، عند إرادة زعماء المعارضة واتفق مع ابن الجراح وابن القاضى وابن حمدان — جد سيف الدولة ، على خلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز . . . ثم لم يلبث أن رجع عن رأيه ، فزاد الموقف بلبلة واضطراباً وتعقيداً . . . فزادت نقمة الشعب عليه ، والطعن فى سلوكه ، والإنكار لفعله والهجاء له ، فخاطبه بعض شعراء بغداد بقوله

يا أبا أحمـــد لاتحسن بأيامك ظنـــّا
واحـــذر الدهر فكم أهلك أملاكاً وأفنى
كم رأينا من وزير صار فى الأحداث رهنا
أين من كنت تراهم ؟ درجوا قرنا فقرنا
فتجنب مركب الكبر وقل للنـــاس حسنا
ربمـــا أمسى بعزل من بإصباح يهنـــا
اترك النـــاس وأيامك فيهم تتمنى

نعم كان الوزير الأول ، إلى صفات الكبر والغطرسة التى فيه ، يلعب على الحبلين . . . ولكن زعماء المعارضة لم يلتفتوا إلى بلبلته واضطرابه فأعلنوا باسم الشعب خلع المقتدر وتولية ابن المعتز . . . وانتهت البيعة بحياة رئيس الوزراء الذى

عدوه أصل هذا الارتباك السياسى . قتله الحسين بن حمدان وبدر الأعجمى ووصيف . . . وبذلك — أى بخلع المقتدر وقتل الوزير الأول — أسدل الستار على الفصل الأول من هذه المأساة الهزلية . . .

* * *

وفى غد ذلك اليوم ، أى بعد أن خلع الحزب المعارض المقتدر تمت البيعة لابن المعتز فحضرها الناس والقواد وأصحاب الدواوين سوى ابن الفرات وخواص المقتدر ، وكتبت الكتب بذلك إلى الولاة ووجه إلى المقتدر يأمرونه بالانتقال من دار الخلافة . . . فأجاب بالسمع والطاعة ، وسأل الإمهال إلى الليل !

وقامت فى بغداد فتنة لاهبة . . . أثارها ابن الفرات ورجالات القصر وأكثرهم من الأسر الفارسية ، وكان جل اعتمادهم على الجنود المرتزقة ، فوقع الصراع الدامى بين الحكومة والشعب ، وكانت نتيجة هذا الصراع أن خذل الشعب أمام طغيان الحكومة وبطش القوة ، ونجحت مؤامرة ابن الفرات بالهجوم على القصر وخلع ابن المعتز ، فانسل فى جنح الليل إلى البرارى. . . ثم قصد توًّا إلى دار ابن الحصباص فآواه . . . وبذلك خلع عنوة عن الخلافة ، وعاد المقتدر إلى دست

الملك . . . ولم يكد يتسلم زمام السلطة حتى أسند أمور الدولة إلى ابن الفرات ، وأصبح وزيره الأول الذى يركن إليه فى مدلهمات الأمور ؛ وسرعان ما أخذ يبطش بخصومه السياسيين ، فاختفى بعضهم وهرب الآخرون ، واستطاعت العيون أن تكشف مقر ابن المعتز ، فلم يكد يقع فريسة بين أيديهم حتى سلم إلى من عذبه الليل بطوله إلى أن مات . . . وفى رواية أنه خنق خنقاً ، كما قتل وزيره ابن الجراح الذى كان على رأس المعارضين ، وهو زميل ابن الفرات فى وزارة ابن العباس ، أما الحسين ابن حمدان — وهو من أقوى زعماء المعارضة — فقد فر هو وأهله ، ثم عاد إلى بغداد بعد أن عفا عنه المقتدر فى قصة ليس هنا مجال سردها .

وهكذا لم تدم خلافة ابن المعتز سوى يوم وليلة ، فذهب ضحية الأهواء الثائرة ، وكأنى به كان يقول لقد صدق حدسى ، وكذب يقين أصدقائى الذين جرونى إلى هذا المأزق بعد أن كنت هذا الطير الذى يحلق فى الأجواء والنغمة الرقيقة المناسبة فى أذن الفضاء . . . وبذلك انتصر حزب القصر ، وأفسح المجال لابن الفرات يتصرف بأمور الدولة كما يشاء ، ويحصر السلطة بنفسه ، وهذا الذى أراده يوم أخذ رأيه فى البيعة .

* * *

وقبل أن نسترسل فى الحديث عن ابن الفرات لا بد من كلمة عن خلافة المقتدر – هذا الصبى الذى ارتقى دست الخلافة فى ظروف غريبة ، وتعرضت حياته للقتل غير مرة ، وما زال فى مصير مضطرب إلى أن قتل وهو شاب شر قتلة . . . ذلك أنه لم ينتزع الملك بنفسه انتزاعاً بل انتزعته له بطانته فى سبيل مطامعها ونفوذها ، وكان الأمر فى مملكته للمرأة التى لعبت أكبر دور فى السياسة الداخلية ، فقد امتلأ قصره بالجوارى والقهرمانات اللائى كان لهن الرأى الحاسم فى تسيير دفة الملك ، وكانت الحياة فى تلك الفترة لوناً من العبث واللذاذات ، ولا بد لشاب قد أبطرته النعمة من أن يأخذ حظه من الخمر والنساء . . . فلم تكن له هذه الشخصية القوية التى تفرض نفسها فى الأزمات لتوجيه سفينة الدولة نحو شاطىء السلام . . . ولم يكن إلى جانبه هذه البطانة التى تسيره فى طريق الهدى والصلاح أو فى رسم هذه الطرق المثلى للحكم الصالح ، فما كاد يشب – والعصر فى أسوأ حالاته – حتى بدأ يرهق الشعب بالضرائب والإذلال . . . كانت سيرته سيرة سيئة ، استوزر خلال خلافته اثنى عشر وزيراً ، وكان أكثر وزرائه من زبانية

الشيطان . . . همهم الحكم السيء وابتزاز أموال الدولة وهدر حقوق الرعية ، وكان الوزراء يتنافسون فى جمع المال بالحق وبالباطل لتقديمه إلى السلطان . ولم يكن للشعب برلمانه اليقظ الواعى الذى يحاسب الوزراء ويدافع عن حقوق الشعب بل كان الأمر للأنانيات والشهوات . . .

صبى فى أول تفتحه للحياة ، ما كان ليهتم إلا بما يطفىء شهواته الثائرة ، كانت إلى جانبه قهرمانة جميلة تسيره كما تريد ، لا تكاد مئات الآلاف من الدنانير الذهبية تدخل خزانة الدولة حتى تستنفذها دينا اللذاذات والأهواء . . .

وكان على الوزير الأول فى الدولة أن يشبع نهم القصر ؛ والويل ثم الويل له إذا قصر فى تقديم المال . إن أهون جزاء له الإقالة من الوزارة ومصادرة أمواله وسجنه . ولكى يشبع هـــذا النهم كان يلجأ إلى الطرق المعوجة بجمع المال بمختلف الطرق ، وهذا الذى حدا الكثير من المؤرخين أن يعتبروا خلافة المقتدر شرًّا على الدولة العباسية وبدء انهيارها السريع ، وحجتهم فى ذلك عدة أشياء أظهرها ، كما قلت ، انصراف الخليفة إلى ملذاته وأهوائه ، وتحكيمه النساء فى شؤون المملكة وإطلاق الحرية لوزرائه تمتد أيديهم إلى أموال الدولة وأموال الناس دون حساب ولا رقيب ،

فقد كان عزل هذا الوزير وتنصيب ذاك من الأمور السهلة — كان عزل الوزير مبنياً على تقصيره فى تقديم المال إلى الخزانة الخاصة . نعم ، لا يكاد هذا الوزير ينال ثقة الخليفة حتى يقيله غداً ليسلم الحكم لغيره . . . ولا يمنعه أن يعيد من أقاله بالأمس . . . من الوزارة إلى السجن ، ومن السجن إلى الوزارة ، وهكذا دواليك ؛ كانت الدسائس والمنافع الخاصة وتقديم الرشاوى هى التى تنهض بهذا وتنحدر بذلك ، وكان الوزراء أنفسهم يأتمرون ببعضهم فى سبيل شهوة الحكم ، وكان لهذا ثمنه ، وهو تقديم الرشاوى لأم المقتدر ولقهرمانته ؛ فالمرأة هى التى كانت توجه سياسة الدولة . وفى التاريخ حوادث مريعة عن حكم النساء ، بعضهن أدرن الحكم بذكاء ودهاء ولباقة ، وبعضهن انحدرن بالمملكة إلى مهاوى الضعف والانحطاط . ولا شك أن أم المقتدر — وهى رومية الأصل — كانت ذات أهواء ؛ همها أن تتمتع بما تتمتع به الكهلة المزهوة أو المرأة التى ودعت شبابها وكهولتها ، فهى تريد أن تتصابى ولو قوضت ألف عرش وعرش .

لقد فسدت الحياة السياسية وفسدت الحياة الاجتماعية وفسدت معهما الحياة الاقتصادية فكانت المملكة من السوء بمكان عظيم . . .

كان عصر المقتدر يفيض بمختلف التيارات ، فميوعة فى الحكم واضطراب فى الأمن ، وهدر للعدالة والحق ، واضمحلال يهدد المملكة بالزوال . وكان من وراء ذلك انبثاق الإمارات المختلفة فى جميع أطراف المملكة ، ووثبات الروم على الثغور لاقتطاع بعض المناطق ، وغير هذا من الأمور التى مهدت للانهيار الذى واجهته البلاد فى مرافقها كافة نتيجة للأهواء والخصومات والأنانية الهائجة المتحكمة التى لم تكن تستهدف أى بارق من المصالح العامة التى تصون المملكة من الاضمحلال . . .

* * *

فى جو هذه الأحداث المظلمة عاش المقتدر حياة مترفة تفيض بالنعيم . كان أبوه المعتضد من الخلفاء الأقوياء ، له صولة وهيبة ، وكان يعيش فى لون واسع من الترف ، بنى قصراً فى بغداد كلفه مبالغ ضخمة جداً ، وكان من أجمل القصور التى تحدث عنها المؤرخون بإعجاب . . . وقد دخل عليه أحد الشعراء فسأله أن يصف القصر ، فوقف الشاعر مدهوشاً ولم يفتح عليه بكلمة ، ثم قال وهو ملعثم اللسان مضطرب الجنان : ماذا أصف يا مولاى ؟ ! حسبي أن أقول إن الناس يبنون الدور فى الدنيا ، وأنت

بنيت الدنيا فى قصرك ؛ فكان لهذه الكلمة وقعها فى نفس الخليفة ، فخلع عليه الخلع الكبيرة ، وبره بأجزل العطاء .

وقد كان المقتدر فى تبذيره مضرب المثل : فقد تولى الخلافة وفى خزانة الدولة خمسة عشر ألف ألف دينار ، أى ١٥ مليوناً ، وجبى له خلال ملكه أضعاف أضعاف هذا المبلغ الضخم من الدنانير الذهبية ، ومع ذلك فلم يكد يأفل نجمه حتى كانت هذه الدنانير التى جمعت من جيوب الرعية قد ابتلعتها الأهواء والشهوات واللذاذات ... فقد أخرج جميع جواهر الخلافة ونفائسها على النساء وغيرهن ، وأعطى بعض محظياته الدرة اليتيمة وكانت زنتها ثلاثة مثاقيل ؛ وأخذت منه زيدان القهرمانة سبحة جوهر لم ير مثلها ، قيمتها ثلاثمائة ألف دينار ... هذا مع ما ضيع من الذهب، والمسك والأشياء الثمينة والتحف النفيسة . وقيل إنه فرق ستين حباً من الصينى (الحب : الجرة الضخمة أو الخابية) ويقدر بعض المؤرخين أن المال الذى أتلفه فى أيام خلافته ثمانون ألف ألف دينار ، أى ثمانون مليون دينار ... !

لهذه الأسباب ولغيرها كان المخلصون من زعماء الشعب يعارضون فى تولى المقتدر الخلافة ، فقد عرفت المعارضة بثاقب بصرها أى مصير ستصير إليه المملكة حين ينتقل

أمرها إلى صبى تلعب به النساء والأهواء . . .

بعد هذه الإلمامة نستعرض سيرة بعض الوزراء الذين حكموا فى عهد المقتدر ؛ ففى سيرتهم نتبين لون الحكم ولون الحياة المتخاذلة التى نقرأ فى أحداثها صفحات الانهيار المريع فى أزهر أيام العهد العباسى . . . وليكن كلامنا عن ابن الفرات أقوى وزرائه الذين لعبوا دوراً كبيراً فى خلافة المقتدر — هذا الوزير الذى تميزت حياته بألوان غريبة جديرة بالدرس والوقوف عندها طويلا .

* * *

تتحدث كتب التاريخ كثيراً عن ابن الفرات الذى اختاره المقتدر ليكون وزيره الأول ، ففيه صفات نادرة أهلته للوزارة بحق ، فقد سبقت له خدمات كثيرة فى أمور الدولة ، وكان إلى عمله وفضله من أذكياء عصره ، ومن أعرف الناس بطوايا النفوس وأخلاق البشر . وكان إلى كل هذه الصفات من كبار الأغنياء . يقول الصولى : « وما سمعنا بوزير جلس فى الوزارة وهو يملك من العين والورق والضياع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات » ، وكان سخىّ اليد حتى قيل إنه كان يجرى على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار فى الشهر إلى خمسة دراهم ، وكأنه

قد عرف أثر الأصفر الرنان فى النفوس ففتح خزائنه على مصاريعها ، وأخذ ينثر المال باليمين والشمال . وما زال حتى استطاع أن يؤلف القلوب حوله — قلوب الذين تستهويهم المادة وينكرون المثل العليا — وما أكثرهم فى كل عصر !
وكان يجرى على الشعراء فى كل سنة من سنى وزارته عشرين ألف درهم رسماً لهم سوى ما يصلهم به متفرقاً عند مديحهم إياه . . . وكان فيمن يدعى إلى طعامه كل يوم تسعة كتاب ، هم خاصة كتابه ، منهم أربعة نصارى . وكانت ألوان الطعام توضع وترفع على مائدته أكثر من ساعتين . وكان له فى داره مطبخان : مطبخ الخاصة ، ولا يمكن أن يحصى ما كان يدخله من الحيوان لكثرته ؛ ومطبخ العامة الذى يختص بما يقدم إلى الحجاب المقيمين بالدار ، ويفرق منه للمسافرين والضيوف والبوابين وأصاغر الكتاب وغلمان أصحاب الدواوين . وتحصى الرواية مقدار ما يدخل إلى المطبخ العام كل يوم من المواشى والدجاج والطيور فتقول : « وكان يقدم إلى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأساً من الغنم ، وثلاثون جدياً ، ومائتا قطعة دجاجاً سماناً ، وفراريج مصدرة ، ومائة قطعة دراجاً . وهناك خبازون يخبزون ليلا ونهاراً ، وقوم يعملون الحلواء عملا متصلا ، ودار كبيرة للشراب ،

وفيها صهريج للماء المبرد » ، أى أن دار هذا الوزير كانت مدينة بذاتها ، فكان أصحاب المصالح الذين يشخصون إلى العاصمة لقضاء مصالحهم ينزلون ضيوفاً فى هذه الدار يأكلون ويشربون ولا يبرحونها حتى تقضى جميع مصالحهم ! ...

تولى ابن الفرات الوزارة وبغداد تعج بالأعاصير ، ولكنه كان ثبت الجنان ، قوى الأعصاب وما كانت مثل هذه الأعاصير لتصرفه عن تدبير شؤون المملكة بالحكمة والأناة . والقصة التى أرويها تدل على ترفعه وعلو نفسه ، ففى اليوم الذى تسلم فيه مقاليد الأمور قدمت إليه تقارير بأسماء خصومه ، فماذا عمل ؟ لم يقرأ هذه التقارير ، وهى كثيرة ، بل أمر بإحراقها ، وقال لمن كان حاضراً : والله لو فتحتها وقرأت ما فيها لفسدت نيات الناس كلهم علينا ، واستشعروا الخوف منا ، على أن هذا لم يمنعه أن يكون حذراً وأن ينكل بخصومه السياسيين ومن عملوا على خلع المقتدر . نعم ، كان إلى جميع هذه الصفات بعيد النظر فى فهم أهواء الأفراد وهواجس الجماعات ؛ فقد كان رجل دولة بكل ما لهذه الكلمة من معنى حديث . ومما يروى عنه أن فقيراً ضاقت به وجوه الرزق فزور كتاباً باسمه إلى عامل مصر للوصاية به والإحسان إليه ، فارتاب العامل بالخطاب ، وأمهله ، ثم

أرسل الكتاب إلى ابن الفرات يسأله رأيه ، ولدى تلاوته رآه كتاباً مزوراً وأن التوقيع ليس توقيعه . فماذا عمل ؟ استشار كتابه ، فأشار بعضهم بالتأديب ، أو بقطع إبهامه أو بكشف قصته للعامل حتى يطرده ويحرمه ، فقال ابن الفرات : ما أبعدكم عن الخير ! رجل توسل بنا ، وتحمل المشقة من بغداد إلى مصر فى تأميل الصلاح بجاهنا ، واستمداد صنع الله ورزقه بالانتساب إلينا ، تكون أحسن أحواله عند أجملكم محضراً تكذيب ظنه وتخييب سعيه ، والله لا كان هذا أبداً ، ثم أخذ القلم ووقع بخطه إلى ظهر الكتاب المزور يوصى به ويقول : إن الكتاب كتابه .

* * *

اختارت بطانة المقتدر أن يكون هذا الرجل الوزير الأول ، وهو اختيار موفق لو أن ابن الفرات لم يكن من حزب القصر ؛ ولكن حزبيته جعلته ينظر إلى خصومه هذه النظرة الحاقدة التى لا تعرف غير البطش ، فعلى يده كانت عقوبات جميع من خرجوا مع ابن المعتز ، فصادر من صادر ، وقتل من قتل ، ووقع بين يديه أبو عمرو محمد بن يوسف القاضى ، أحد خصومه السياسيين المشايعين لابن المعتز ، فقرر قتله ، وعز هذا المصير على والده أبى يوسف ، وهو

شيخ جليل من شيوخ بغداد ، فجاء مجلس ابن الفرات وبكى بين يديه بكاء شديداً رق له منه ، وسأله حراسة ولده ، فقال له الوزير ، الخيانة عظيمة ، ولا يمكن تخليته إلا بمال وفير يطمع الخليفة فيه ، فبذل الرجل كل ما يملك هو وابنه ، بل تخلى عن ماله وضياعه وجميع أملاكه . تقول الرواية : « وتلطف ابن الفرات فيما قاله للمقتدر ، وقرر أمر أبي عمر على مائة ألف دينار ، فأدى منها تسعين ألفاً وأمره ابن الفرات بعد ذلك بملازمة داره وألا يخرج منها لئلا يجعل له حديث مجدد » . وهكذا فقد فرضت عليه الإقامة الإجبارية بعد أن سلبه كل ماله !.

كان ابن الفرات يعرف أن حياته وحياة الخليفة مهددتان بالقتل بين لحظة وأخرى ، فالتزم الشدة فى حكمه ، فقويت شوكته حتى خافه الكبير والصغير ، والغنى والفقير ، ووصل الأمر بعلى بن عيسى ، وهو من كبار رجالات بغداد ، أن تذلل له وقبل يده ويد ابنه ، وكان عمره عشر سنوات فلم يرقه هذا الاستعطاف والتذلل ، وقال : هذه طريقة لا أحبها . . .

ومما لا ريب فيه أن ابن الفرات من الوزراء المصلحين ، وكان يريد أن يقضى على الميوعة التى تكتنف سياسة الدولة ،

وأن ينتهج سياسة إصلاحية واسعة ، ولكن السيطرة الفعلية لم تكن له ، بل كانت فى الواقع ، لأم المقتدر ، ولقهرمانته وخليلاته . . . وهذا الذى جعل مهمته صعبة شاقة . . .

وقد كانت لهذا الوزير آراء غريبة فى سياسة الدولة ، فمن أقواله : « أصل أمور السلطان مخرقة ، فإذا تمت واستحكمت صارت سياسية ! » وقوله « تمشية أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها عند الصواب » ! وكان يقول : « إذا كان لك حاجة إلى الوزير فاستطعت أن تقضيها بخازن الديوان أو كاتب سره فافعل ولا تبلغ إليه فيها ! » .

ومع ما كان يستدعيه موقفه من الحيطة والحذر فقد كان « يكره السعايات ويقطع الطريق على من يتجرون بالوشايات ويتقربون بها إلى صاحب السلطان ، فمن ذلك أنه كان إذا أتاه إنسان بشىء من هذا أهانه ، وقد ينادى الآذن علناً إذا أراد الاستئذان على الوزير : أين فلان الذى قدم كذا فى السعاية » .

وكانت أمور الدولة عنده ورعاية مصالح الناس هى فوق كل اعتبار ، فقد عزم يوماً على الصبوح وكان يوم الأحد ، ومن عادته أن يجلس للمظالم فيه ، ثم انتبه أنه لا يجوز أن يتشاغل بالسرور ، ويصرف عن بابه قوماً كثيرين قد

قصدوه من نواح بعيدة وأقطار شاسعة مستصرخين ، هذا من أمير ، وهذا من عامل ، وهذا من قاض ، ويمضون مغمومين داعين عليه ، فأجلس صاحب ديوان المظالم وإنساناً آخر من خاصته ، وقضوا فى جميع هذه المظالم مما جعل أرباب الظلامات مسرورين .

وكان حرصه على أموال الدولة مضرب المثل ، فقد رفع إليه أحد الفقراء عريضة يشكو فيها حاله وأنه مدين ، وعلى العريضة توقيع أحد الوزراء بوجوب قضاء دينه من مال الصدقات فأجابه بقوله : يا هذا إن مال الصدقات لأقوام بأعيانهم لا يتجاوزهم ، ولقد رأيت المهتدى بالله ، وقد أمر فى مال الصدقات بما جرى هذا المجرى فقال له أهلها : ليس لك يا أمير المؤمنين ذلك ، فإن حملتنا على أمرك وإلا حاكمناك إلى قضاتك وفقهائك ، فحاكمهم فخاصموه ، وإن شئت أنت حاكمناك ، فقال الرجل لا حاجة بى إلى المخاصمة . . . قال ابن الفرات : الآن نعم أواسيك وأقضى دينك ، وفعل ، وكان مبلغه خمسمائة دينار ، دفعها من جيبه الخاص .

ظل ابن الفرات فى دست الوزارة قرابة أربع سنوات يسير سفينة الدولة باللين تارة وبالشدة تارة أخرى حتى وصل به الأمر إلى أن حدّ من أطماع الخليفة وتبذيره ، ففى إحدى

السنوات احتاج الخليفة إلى أن ينفق فى عيد النحر ما جرت به العادة ، فطلب أن يعطيه من بيت المال ما يصرفه فى نفقات هذا العيد ، ويظهر أن نفقاته تجاوزت الحد المرصود له فى موازنة الدولة ، فمنعه وألزمه القيام به من أمواله الخاصة ، ولم يصرف له درهماً واحداً . . . فماذا كان أثر هذا المنع فى القصر : عند البطانة وعند خصوم ابن الفرات بصورة خاصة ؟ ! لقد وجد أعداؤه الطريق معبدة للوقيعة به والدس عليه ، وما زالوا يوغرون صدر الخليفة عليه حتى صدرت الأوامر السامية بإقالته . وهكذا انتهت أول وزارة لابن الفرات بعد خدمات طويلة فى توطيد عرش المقتدر ، بالغضب عليه وإقصائه من دست الحكم .

* * *

بعد أن أقيل ابن الفرات كان لا بد من البحث عن وزير جديد ، فوقع الاختيار على ابن خاقان ، وقد بدأ عهده بمصادرة أموال الناس بالحق وبالباطل لسد حاجة الخليفة حتى لا يقع فيما وقع فيه سلفه ، وكانت أول أعماله أن يضع يده على ثروة ابن الفرات — على ضياعه وأملاكه ، فتجمع لديه ما مقداره مليون وستمائة ألف دينار سوى الأثاث والرحال والكراع والجمال ، ولكى ينال الحظوة عند الخليفة

حول من بيت المال إلى الخزانة الملكية الخاصة مليوناً وستمائة ألف دينار على سبيل القرض . وكأنما اعتبر أن ثروة زميله قد جاءته عن طريق الوزارة ، ومن نفوذه وسيطرته على موارد الدوله ، فأباح لنفسه مصادرتها ! وقد كان لهذا العمل التعسفى أثره فى نفوس مختلف الطبقات ، لا حبًّا بابن الفرات بل لأن شؤون الدولة أصبحت لوناً من الأحقاد والضغائن بين الوزراء أنفسهم ! وبالرغم من النزعات الدكتاتورية التى تميز بها ابن خاقان ، عرف بالضعف والميوعة والتهاون وإهمال شؤون الدولة إهمالا صارخاً فاستبد به كتابه وأعوانه ، وكانت المراسلات الحكومية تجرى دون أن يطلع عليها ، إذ كان أمناء السر والمقربون إليه هم الذين يتصرفون فى شؤون الدولة . أما هو فحسبه من الوزارة مظهرها . وكانت التعيينات تجرى بما لا يقره العرف والقانون ، كان يعين هذا ويسلم أمره لولاية من الولايات فلا يكاد يتجه إلى عمله حتى يعين غيره لنفس العمل ويسلمه أمره بيده ويعزل من سبقه ! ولكل مرسوم ثمنه ، حتى قال فيه بعض الشعراء :

وزير قد تكامل فى الرقاعه ، يولى ثم يعزل بعد ساعه
إذا أهل الرشا اجتمعوا لديه فخير القوم أوفرهم بضاعه

وليس يلام فى هذا بحال لأن الشيخ أفلت من مجاعه !

كان ابن خاقان إلى تهوره ونزعاته الديكتاتورية لين العريكة ، لا إرادة له . لم يرفض لأحد حاجة ، وإذا شكا أحدهم أمراً دق صدره بيده وقال : نعم وكرامة ! وكثيراً ما كانت وعوده تذهب هباء دون أن تنفذ ، لأن السلطة لم تكن بيده حتى لقب فى بغداد بالوزير « دق صدره » ! وهكذا كانت وزارة هذا الرجل من أسوأ ما عرفته بغداد ، فثار الناس وضج أرباب المصالح ، ووقفت أمور الدولة ، وذهبت هيبة الحكم حتى اضطر الخليفة ، تحت جميع هذه العوامل والاعتبارات ، أن يقصيه عن الوزارة ، بعد سنة من حكمه ، وكان لا بد من رجل ينقذ الموقف ؛ فمن هو هذا الرجل ؟ !

إن الخليفة لا يريد أن يكل الأمر إلى أحد من المعارضين ، وفيهم رجالات وقفوا أنفسهم لخدمة المملكة بإخلاص وإنقاذها من هذه الفوضى . وبعد تفكير غير قليل قر الرأى أن توكل الوزارة إلى على بن عيسى ، وهو رجل مسموع الكلمة ، عرف بالزهد والتعبد — أنفق جميع ما يملكه فى سبيل الخير والبر ، وكان رجلا وقوراً ، لا يعرف التبذل ، حريصاً على صيانة أموال الدولة ، ولكن هذا الرجل لم يكن فى بغداد ،

فقد سافر فى خلال الفتنة إلى مكة ليبتعد عن هذه المهازل التى كانت تمثل على المسرح العباسى ، فاستدعى وقبل أن يتسلم زمام الدولة بمضض ، وكانت أولى أعماله أن يضع حداً للفوضى التى خلفها ابن خاقان ، وأن يعيد الأمور إلى مجاريها . والحقوق المهدورة إلى أصحابها، فقد وجد فى أيدى القواد والحاشية والرعية توقيعات كثيرة بخط ابن خاقان وخط ابنيه وكتابه فى فك وإثبات ، وتقرير وإيجاب ، وكلها تنافى الحق والعدالة ، فأسقطها كلها دون أن يهتم لنتائج عمله عند الانتهازيين ، وقد نصحه أحد أصفيائه بقوله : إنك أخطأت فى عملك هذا ، لأنك تعلم ما للنساء من سيطرة على الخليفة ، وهذه الأعمال بوحى منهن ، وكلها لبعض خواص المقتدر وأتباع القصر ، فلم يسمع نصيحة صديقه وقال : إن الحق أحق أن يتبع ، ومن واجبات رجل الدولة أن يصون حقوق الأفراد والجماعات ، دون الاهتمام بالوساطات والمحسوبيات ! ولكن النتيجة كانت على غير ما أراد . ومع اتخاذه الشدة فى الحكم ، والسهر على حقوق الرعية ، وإسقاط الكثير من الضرائب التى تثقل عاتق الشعب ، والحد من تصرفات رجال القصر وتبذيرهم — بالرغم من ذلك اصطدمت هذه النزعات الإصلاحية بألاعيب

المفسدين ، إذ بدأت السعايات والوشايات . وكانت النتيجة أنه لم يستطع أن يتحمل هذا الجو الموبوء فقدم استقالته وشرح سياسته فى كتاب طويل يعتبر من أقوى الوثائق السياسية التى يلجأ إليها الوزراء فى مثل هذه الساعات العصيبة التى يتخلون فيها عن الحكم ، فهو لم يقل إن استقالته بسبب شيخوخته أو مرضه بل شرح العوامل التى دفعته لهذه الاستقالة فى كثير من الجرأة والصراحة . والغريب أن هذا الوزير لم يقدم كتاب استقالته إلى الخليفة بل قدمه إلى أمه ، فقد اعتبرها المتصرفة فى شؤون الدولة ، والمسؤولة عن كل هذا الخلل . وفى الكتاب تصوير دقيق لما وصلت إليه المملكة من انهيار ، ونصائح غالية فيما يجب عمله للتوقى من هذا الانحدار . ولكن ما قيمة هذه النصائح فى خضم الأهواء والأنانية ؛ وربما كان هذا الوزير الوحيد بين وزراء المقتدر الذى أجمع المؤرخون على امتداح نزاهته ، فقد كان يشتغل فى أمور الدولة ليل نهار ، وأبى أن يعين أبناءه أو أحد أقاربه فى وظيفة مدة وزارته ، وبلغ به الاقتصاد فى أموال الدولة إلى حد التقتير . اضطر إلى ذلك بعد أن رأى شدة التبذير والنهب والإسراف . . . ولكن هذا الموقف الصارم أمام تصرفات الكثيرين وتصرفات القصر وقهرمانته

هو الذى جعل الدسائس تأخذ طريقها لتشويه سمعته ، فقد ادعت أم موسى القهرمانة أنه أهانها حين طلبت إمداد القصر بالمال . ومع أن الروايات تتفق على أنه لم يقابلها ، وأن الذى صرفها عن مقابلته هو كاتبه ، ادعت عليه دعاوى مريبة لدى الخليفة وأمه ، وهى دعاوى لا تصدق عن هذا الرجل لما اتصف به من زهد وورع ؛ ومع ذلك فقد لقيت تلك الوشاية طريقها إلى أذن الخليفة ، وكوفئ على تجرده وإخلاصه بالقبض عليه وزجه فى السجن . وهكذا لم يتح له أن يحقق برنامجه الإصلاحى وتوطيد سياسة الدولة على أس مكين . . .

من الوزارة إلى السجن ، ومن السجن إلى الوزارة . . . وهكذا كانت تجرى أمور الدولة وشؤون الرعية فى هذا الأتون المضطرب من الأحقاد والأنانيات ، وفى فيض من الشهوات واللذاذات !!

* * *

والآن . . . من يخلف على بن موسى ؟

لقد اتجهت الأنظار مرة ثانية إلى ابن الفرات . .

نعم إلى ابن الفرات أبرز رجل فى خلافة المقتدر . . .

وصدرت الأوامر السامية بإطلاق سراحه وإعادة حريته له . . .

من الجحيم إلى النعيم ، نعم ، من السجن إلى الوزارة ، وقبل أن نتابع حديثنا عن وزارته الثانية ، ننتقل إلى مظهر من مظاهر الدولة فى علاقتها الخارجية ، لنرى لوناً جديداً من البذخ الذى كانت تفيض به الحياة فى عهد المقتدر بالرغم مما كانت عليه الخلافة فى أيامه من التفكك والوهن والاضطراب .

فقد عاصر المقتدر من ملوك البيزنطيين لاون السادس ثم الملكة زويا . . . ووقعت بين الروم والمسلمين حروب امتدت إلى جهات أنقرة . ولن نتكلم عن هذه الحروب ، ونحن نلمع إلى مظاهر البذخ فى خلافة المقتدر ، فحسبنا أن نشير إلى حفلة استقبال السفراء البيزنطيين الذين جاءوا للمفاوضة فى طلب الهدنة وتبادل الأسرى . . . فقد اهتم المقتدر للأمر ، أو اهتمت به أمه — وهى رومية الأصل كما قلنا — وأنشأ داراً خاصة لاستقبال رسول الإمبراطور عرفت بدار الشجرة . ويسهب المؤرخون فى وصف هذه الدار والعرض العسكرى وحفلات الاستقبال ، مما يدل على ما كان للمظاهر من أثر فى مثل هذه العلاقات ، ونجتزئ بفقرات من هذا الوصف ، قال السيوطى :

« . . . وفى سنة ٣٠٥ هـ قدمت رسل الروم بهدايا وطلبت

عقد هدنة ، فعمل المقتدر موكباً عظيماً فأقام العسكر ، وصفهم بالسلاح وهم مائة وستون ألفاً ، من باب الشماسية إلى دار الخلافة ، وبعدهم الخدام وهم سبعة آلاف خادم ، ويليهم الحجاب وهم سبعمائة حاجب ، وكانت الستور التى نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج ، ومن البسط اثنين وعشرين ألفاً ، وفى الحضرة مائة سبع فى السلاسل إلى غير ذلك » .

أما الدار التى أنشأها خاصة لهم فقد وصفها الخطيب البغدادى ، أو وصف شجرة الفضة التى وضعت فى الدار المسماة باسمها فقال :

« . . . وفيها شجرة فى وسط بركة كبيرة ، مدورة ، فيها ماء صاف ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع ، مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها مذهب ، وهى تمايل فى أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجرة ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر ، وفى جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفى أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد ، فيظن أن كل

واحد منهم إلى صاحبه قاصد ، وفى الجانب الأيسر مثل ذلك . وقد كان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده » .

وقد وصف لنا صاحب تاريخ بغداد شخص الخليفة فقال :

« . . . ووصلوا إلى حضرة المقتدر بالله ، وهو جالس فى التاج مما يلى دجلة ، بعد أن لبس الثياب الدبيقية المطرزة بالذهب على سرير أبنوس قد فرش بالدبيقى المطرز بالذهب — الدبيقى نسبة إلى دبيق مدينة من مدن مصر كانت مشهورة بصنع هذه المطرزات الذهبية — وعلى رأسه الطويلة ، ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة ، ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار ، وبين يديه خمسة من ولده ، ثلاثة يمنة واثنان يسرة ، ومثل الرسول وترجمانه بين يدى المقتدر فسجد ، وقال الرسول لمؤنس الخادم القائد ونصر القسورى — وكانا يترجمان عن المقتـــدر — لولا أنى لا آمن أن يطالب صاحبكم بتقبيل البساط لقبلته ، ولكنى فعلت ما لا يطالب رسولكم بمثله ، لأن التفكير ، أى السجود من رسم شريعتنا » .

* * *

ولنرجع الآن إلى صاحبنا ابن الفرات الذى قلده المقتدر الوزارة للمرة الثانية ليصلح ما أفسده ابن خاقان . . . فيا ترى أفكر فى الإصلاح حقيقة لإنقاذ المملكة من التدهور ، أم استيقظت فى نفسه شهوة الانتقام والتنكيل بخصومه ، فنسى مهمته كوزير نيطت به الوزارة لخدمة الشعب والسهر على مصالحه .

لقد كانت أول التفاتة سامية من الخليفة المقتدر نحو ابن الفرات بعد أن أخرجه من السجن أن أعاد إليه ما كان قبضه عنه وعن أهله من الضياع والأموال ، وقد أخذ على نفسه وهو فى السجن ، أنه إذا أطلق سراحه أن يعيد إلى جميع من كان يفيد من عطاياه ، فحقق ذلك ، وتعهد للخليفة أن يقدم له كل يوم ألف دينار ، وإلى السيدة أمه والأمراء خمسمائة دينار ، فوفى بعهده . وكأنه بهذه الرشاوى قد وطد مركزه من جديد ، ولكن ظنونه كانت فى غير محلها ، فلم يكد يرتقى دست الوزارة حتى أخذت الدسائس تحيط به . لقد هابه خصومه ولم يتورع هو عن التنكيل بهم والانتقام منهم ، فهو الطبع البشرى يظل فى ضعفه مهما كان الإنسان عظيما . لقد أراد أن يصلح الخلل الاقتصادى فوجه اهتمامه إلى الملتزمين وألاعيبهم . وبدأ برجل

ربح مبالغ طائلة من ضمانة بلدة « واسط » . ولم يكن يعلم أن لهذا الرجل صلة بأم المقتدر وأنه يشرف على ضياعها ؛ فلم يكد يفسخ التزامه حتى أخذت الدسائس تحاك حوله . نعم ، كان هذا العمل وحده يكفى لأن تشوه سمعته لدى القصر من جديد . . . ولا شيء يروج لدى حكومة النساء كالوشايات ولا سيما إذا كان لها مساس بالشؤون المالية الخاصة . فغضب القصر على ابن الفرات ؛ واستعيض عنه بحامد ابن العباس ، وهو ذو صلة وثيقة بأم المقتدر . ولكن ليس لهذا الرجل من الخصال ما يؤهله لتسلم هذا المنصب الخطير . . . كانت مزاياه المفضلة عند حواشى القصر أنه يعرف كيف يستغل موارد الدولة استغلالا لمنفعته الخاصة ؛ فضمن أعمال الخراج ، وجمع الغلال — أى حكرها — وكان من جراء ذلك أن ارتفعت أثمان الحبوب وزاد الغلاء ، فثارت العامة ووقعت حوادث دامية بين الأهالى والجند مما اضطر الخليفة أن يفتح مخازن الغلال التى لحامد ولأمه ولغيرهما وبيع ما فيها بأبخس الأثمان فرخصت الأسعار وهدأ روع الناس كما صدرت الأوامر بإقالة هذا الوزير الذى تاجر بخبز الفقير ! . . .

بعد إقالة ابن حامد أعيد على ابن عيسى للمرة الثانية ،

وهو كما قلنا من الوزراء المصلحين وإذ عرف هذا الرجل بالاقتصاد الشديد خاف الجند والموظفون على رواتبهم ، فحاكوا له الدسائس وسرعان ما اتهم بالتزوير والرشوة وأعيد إلى السجن فى قصة طويلة لا يتسع المجال لسردها . وهكذا كانت أمور الدولة تسير بين الاتهامات والنكايات وفى جو من الدسائس والوشايات . وجىء بابن الفرات ليتولى الوزارة للمرة الثالثة ، وكان فى السبعين من عمره ، فأفسح المجال لابنه المحسن أن يحكم ، فانتقم لأبيه من حامد ، وكان ابنه ذا قسوة شديدة فعذب حامداً أقسى أنواع العذاب ، وأخيراً أنفذه إلى « واسط » لبيع أملاكه ، ثم دس من سمه فى الطريق فمات ، وارتكب المحسن الكثير من الموبقات فنكب الناس وصادرهم وعذبهم عذاباً شديداً لاستخراج أموالهم حتى مات أكثرهم تحت العذاب من غير شفقة ولا رحمة ، وفيهم كبار رجال الدولة ورؤساؤها وكتاب دواوينها . وقد واجهت بغداد ، فى هذه الفترة ، ثورة القرامطة ففسد الأمر وكثر الإرجاف على ابن الفرات . وفى بعض الروايات أن ابن الفرات لم يتحرج فى أخريات أيامه ، أن يمد يده إلى خزانة الدولة ، بل أضاف هو وأخوه كثيراً من ضياع السلطان إلى أملاكهما وعظم دخلهما ، وهنا صدرت الأوامر مجددة

بالقبض عليه سنة ٣١٢ هـ بعد أن استقر فى الوزارة قرابة سنة . . .

من لابن الفرات غير ابن خاقان ، خصمه اللدود ، هذه هى الوجوه لم تتبدل ؛ فقد كانت أمور الدولة بيد عدة أشخاص من هذه الأسر الفارسية ، وهى أسر عاشت فى صميم الإقطاعية . وكانت أولى أعمال ابن خاقان أن انتقم من ابن الفرات وابنه الحسن وصادر منهما مليون دينار ، ثم عذب المحسن وطلب إليه أن يسلم ما لديه ، فامتنع وقال لا أجمع بين نفسى ومالى ، واشتد عليه العذاب بعد أن أضرب عن الطعام أياماً . ولما علم المقتدر بذلك أمر بحمله مع أبيه إلى دار الخلافة ثم قرر رجال الحاشية أن يقتلوهما فذبحوهما كما تذبح النعاج ، وقال الأب فى الساعات الأخيرة من حياته بعد أن رأى هذا الهوان : المقتدر يفعل بى هذا ؟ ! . . .

وكأنه كان يقول أنا الذى صنت حياته ووطدت دعائم مملكته ثم يكون مصيرى هذا . . .

وقد تناوب على الوزارة بعد ابن الفرات عدة وزراء لم تكن سيرتهم ولا سياستهم أحسن مما تقدم . وبالرغم من اختلاف شخصياتهم فقد اتفقوا فى شىء واحد هو العبث

بحقوق الرعية وانتهاب خزانة الدولة . وهذا الذى عجل بالانهيار .

* * *

والآن نقف عند هذا الحد من عرض هذه الصور من حكم المقتدر — هذا الصبى الذى لبث على العرش خمسة وعشرين عاماً ، كان الحكم خلالها للأهواء وللنساء وللمتولين الجشعين من الأسر الفارسية التى ضربت الحكم العربى فى الصميم ؛ وكان ذلك بدء الانهيار فى المملكة العباسية نتيجة لانبثاق الأنانيات الهائجة وانغماس الدولة فى الشهوات والعبث بحقوق الأفراد والجماعات ، ثم التمكين للأيدى الأجنبية أن تلعب من وراء ستار — هذه وكثير غيرها مما ألمعنا إليه من عوامل الانهيار هى التى مهدت لانفراط عقد أكبر إمبراطورية عربية عرفتها الدنيا القديمة ، فكان من جراء هذه الآثام والنزوات أن تفككت وحدة العرب وأصبحت الإمبراطورية الكبرى دويلات متفرقة تتقاتل وتتخاصم فى سبيل العروش الخاوية والمناصب الكابية فى حين كان العدو على الأبواب ، وما زال حتى تمت له السيطرة والغلبة ونام العرب نومتهم الطويلة ستة قرون كاملة . فما أحوجهم اليوم — وقد تم البعث — إلى الاعتبار بعظات التاريخ — وهو أبو العبر — نعم ،

ما أحوجنا إلى التجرد والإخلاص والإيمان بقداسة الحرية وتجنب الأغلاط والهفوات والنكايات ، ثم العمل متكاتفين يداً واحدة لبناء الإمبراطورية العربية الكبرى التى هى حلم كل عربى . . .

مصادر هذا البحث

تاريخ الطبرى .
الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى .
النظم الإسلامية .
الإسلام والحضارة العربية .
النجوم الزاهرة .
محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية .
الدولة العباسية : قيامها وسقوطها .

اقرأ

- عنوان هذه السلسلة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات، بل هو خير ما وجه إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن.

- السلسلة الشهرية الوحيدة التي تعمل منذ أكثر من سبع سنوات على جعل الثقافة في متناول الجميع.

- نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن كبيرة الفائدة في كل منزل يستفيد منها الشباب والشيوخ على السواء.

- تصدرها دار المعارف بمصر في طباعة أنيقة بمعاونة حضرات الدكتور طه حس
والأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ